

الفصل الرابع: محاور الواقعية في تصوير الشخصيات

المقدمة

يروم الباحث مناقشة محاور الواقعية في تصوير شخصيات الرواية؛ ليعبر عن دلالات ذلك التصوير على انتماء بهاء طاهر إلى الواقعية النقدية. وإن المحاور التي تناقش، قد جاءت من اهتمام بهاء طاهر بتصوير الأبعاد الداخلية النفسية لشخصياته. ومن ثم تستخلص الأفكار التي تناقش هنا من نظرة ركيزة على جوانب عدة لهذه الأبعاد الداخلية للشخصيات. وتهم الدراسة الإشارة إلى أن عبير سلامة قد حددت تلك المحاور كلها في مقالها بعنوان: "مدخل إلى عالم بهاء طاهر القصصي". وناقش بيتروف محورين منها في كتابه: الواقعية النقدية في الأدب. ومنها:

أ. اغتراب الراوي أو الاغتراب^{٣٥٦}

ب. اضطراب العلاقات الإنسانية

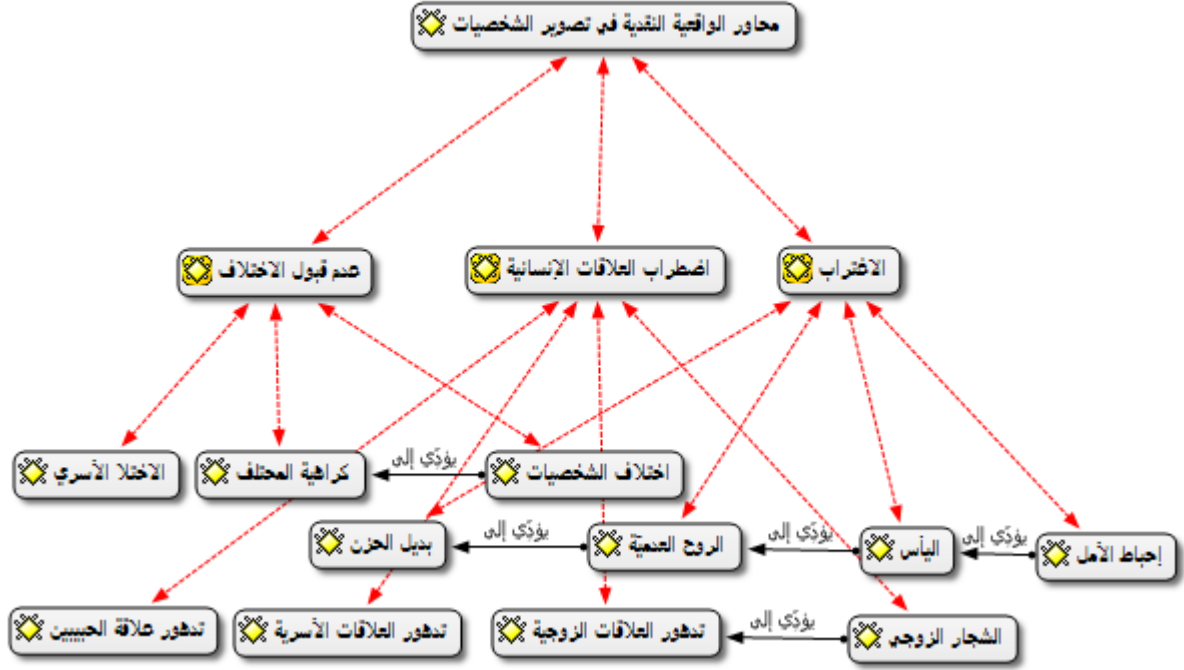
ج. عدم قبول الاختلاف...^{٣٥٧}

وسيكشف التحليل أن روايات بهاء طاهر، من زاوية الشخصيات التي تقدمها، تعبر عن القمع الاجتماعي والسياسي للذين خلقوا مواطنين يشعرون بالاغتراب عن مجتمعهم وأمتهم، والاغتراب عن وطنهم. معنى هذا، إن التحليل الآتي مضموني، يعني بأفكار الروايات حول البعد النفسي للشخصيات ولا يركز كثيراً على بنائها الفني. ومع هذا قد وضح بعض المسائل العامة التي تتعلق بالبناء الفني للشخصية الروائية بوصف ذلك نظرة عامة حول الشخصيات. وبالتالي قد سلطت الدراسة الضوء على القضايا الأساسية لبناء الشخصية الروائية، ووضّحت أثرها في الشخصيات الروائية.

ويأتي الآن الرسم التوضيحي ٧ لرسم نتيجة التحليل للشخصيات كما يأتي:

^{٣٥٦} س. بيتروف. ٢٠١٢م. الواقعية النقدية في الأدب. ص. ١٤٢. و: عبير سلامة. ٢٠١٣م. "مدخل إلى عالم بهاء طاهر القصصي". ص. ٣.

^{٣٥٧} عبير سلامة. ٢٠١٣م. "مدخل إلى العالم القصصي". ص. ٣.



الرسم التوضيحي ٧: محاور الواقعية النقدية في تصوير الشخصيات

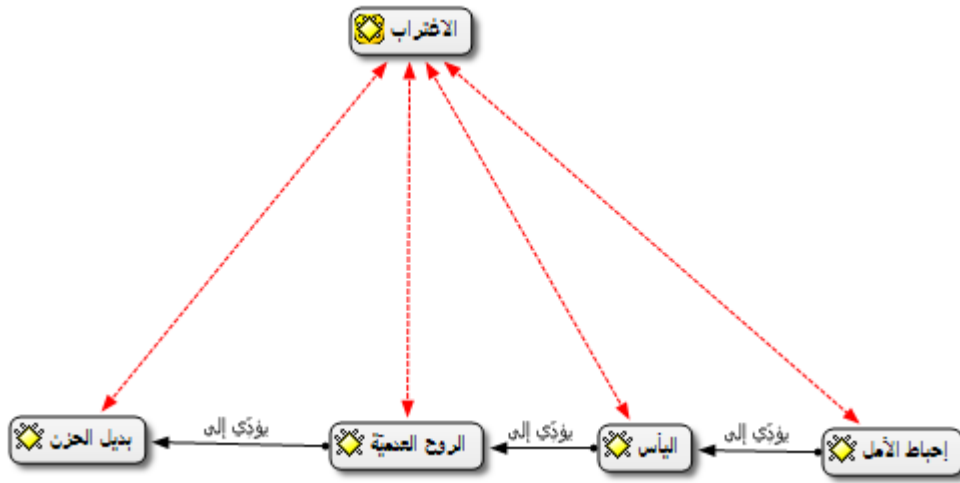
يبدو من الرسم التوضيحي ٧ أنّ محاور الواقعية في تصوير الشخصيات تتجلى في ثلاثة عناصر: الاغتراب، واضطراب العلاقات الإنسانية وعدم قبول الاختلاف. وينتفح محور الاغتراب إلى أربعة عناصر وهي: إحباط الأمل، واليأس، والروح العدمية وبدليل الحزن. وتنبع من اضطراب العلاقات الإنسانية أربعة عناصر أيضاً وهي: الشجار الزوجي، وتدهور العلاقات الزوجية، وتدهور العلاقات الأسرية وتدهور علاقة الحبيين. أما عدم قبول الاختلاف فتنبثق منه ثلاثة عناصر فقط، وهي: اختلاف الشخصيات، وكراهية المختلف والاختلاف الأسري. ومن هنا تتناول المناقشة المحور الأول.

المبحث الأول: الاغتراب

إنّ الغربة هي المحور الأول الذي تسعى الدّراسة إلى مناقشته. وهو "تجربة نفسية شعورية عند الفرد تتصف بعدم الرضى، والرفض، والإحساس بأنّ هوة عميقة تفصل بين العالم الواقعي الذي يعيشه، والعالم المثالي الذي يصبو إليه."^{٣٥٨} وقد

^{٣٥٨} أحمد موسى الخطيب. ٢٠٠٨م. الحساسية الجديدة قراءات في القصة القصيرة. ص. ١٥٢. نقلاً عن: حليم بركات. ١٩٦٩م. "الاغتراب والثورة في الحياة العربية". مجلة مواقف. لبنان: د. ن. السنة. ١. عدد (٥): أغسطس. ص. ٢١.

أشارت نتيجة التحليل أنّ الاغتراب يتكوّن من عناصر أربعة وهي: إحباط الأمل، واليأس، والروح العدمية، وبديل الحزن. إحباط الأمل هو الذي يسوق الشخصية إلى اليأس، وإلى الاتصاف بالروح العدمية كما يظهر هذا في شخصية الراوي. ومن هنا نجد نفسها في حزن عميق . وتتولد الحالة حالة الكابوس الصاحي المستمر للشخصية. كما تقودها هذه الحالة إلى حالة أخرى وهي الشرود وبالتالي تتطلب الشخصية بديل حزنها إمّا في إدمان الخمر والسيجارة والمخدرات أو الارتقاء في أحضان العاهرات، أو الانتحار. وقد ظهرت الحالة الأولى في الرواية الأولى؛ إذ إنّ الراوي المشارك وجد بديل حزنه في إدمان الخمر والتدخين المستمر. وعلاوة على هذا، تتفق الروايات كلّها في كون الاغتراب يتكوّن من هذه العناصر الأربعة. ويأتي الرسم التوضيحي ٨ ليوضّح ما سبقت مناقشته:



الرسم التوضيحي ٨: الاغتراب ومكوّناته

يلاحظ من الرسم التوضيحي ٨ أنّ محور الاغتراب يتفرّع إلى أربعة فروع: إحباط الأمل، واليأس، والروح العدمية. ويشير السهم الذي بين الرموز إلى علاقة بين الرموز. فوجود السهم يثبت وجود العلة، وعدم وجود السهم ينفي وجود أية علة. والأسهم التي توجد من محور الاغتراب إلى العناصر الأربعة تشير استخلاص العناصر من المحور. والتعبير الذي على السهم بين الرموز يعني أنّ إحباط الأمل يؤدّي إلى اليأس، وينتج اليأس الرغبة الملحة في اللجوء إلى بديل الحزن. وعند المقارنة بين الروايات الست التي تجلت عناصر المحور الأول للواقعية، يلاحظ أنّ إحباط الأمل يتقدّم على سائر

الأبعاد في الاقتباسات الكثيرة المشيرة إلى هذا البعد في النصوص المدروسة. إذ إنه قد تمثل في أكثر من شخصيتين في كل رواية. ومن الأبعاد ما لم يظهر في شخصية ظهر عندها إحباط الأمل. وعلى سبيل المثال: لم يظهر الروح العدمية في شخصية صفيّة وحربي في الرواية الثالثة مع أنّ إحباط الأمل يتمثل فيهما. ويبلغ عدد المقاطع النصية المشيرة إلى إحباط الأمل 61 مقطعاً. وهذا يمثل حجماً كبيراً من الروايات المدروسة. ويأتي بعد إحباط الأمل بديل الحزن. فقد ظهر في معظم الشخصيات التي ظهر فيها إحباط الأمل. ويأتي هذا العنصر اليأس الذي هو الآخر قد ظهر في النصوص المدروسة كلها. ويأتي أخيراً الروح العدمية. وجدول المقارنة الآتي يزيد شرحاً على ما سبقت مناقشته. وهو كالآتي:

الجدول 3: محور الاغتراب

	P 6	P 5	P 4	P 3	P 2	P 1	الروايات الرموز
61	13	9	21	5	7	6	إحباط الأمل
46	12	4	18	2	5	5	اليأس
55	16	8	12	5	7	7	بديل الحزن
35	13	7	7	0	2	6	الروح العدمية
197	54	28	58	12	21	24	المجموع الكلي للعناصر في الروايات

مؤشرات الجدول:

- P1 الرواية الأولى: شرق النخيل
- P2 الرواية الثانية: قالت ضحى
- P3 الرواية الثالثة: خالتي صفيّة والدير
- P4 الرواية الرابعة: الحب في المنفى
- P5 الرواية الخامسة: نقطة النور
- P6 الرواية السادسة: واحة الغروب

إنّ الخطّ الرأسي لهذا الجدول يشير إلى الرموز الحرة الأربعة التي تُكوّن المبحث الأول لهذا الفصل، والتي هي مطالب هذا المبحث، والمجموع الكلي للمطالب الأربعة في كل رواية على حدة. وأمّا الخطّ الأفقي فهو يشير إلى عناوين الروايات،

والمجموع الكلي لجميع الروايات وعدد ورود كل رمز على حدة في جميع الروايات، ثم المجموع الكلي لجميع الرموز في جميع الروايات. وكذلك إنّ p1 - p6 يشير إلى المستندات أو المعلومات المحلّلة، وفي هذا الصدد الروايات. ورُتبت حسب الترتيب الزمني لصدورها. وفي ضوء ما سبقتنا مناقشته يقسّم هذا المبحث إلى أربعة مطالب: إحباط الأمل، واليأس، والروح العدمية ثم بديل الحزن.

وجاءت النسبة الأعلى للاقتباسات التي تشير إلى إحباط الأمل في الرواية الرابعة لأنّ موضوعها الرئيس هو الغربة أو الاغتراب خارج الوطن. كما أنّ الرواية التي تلي الرابعة في الفوز بالنسبة العالية للاقتباسات، الرواية السادسة، تتحدث عن الموضوع نفسه؛ لكن باختلاف يسير، وهو أنّ الرواية السادسة تناول موضوع الغربة داخل الوطن، وليس خارجه. معنى هذا، إنّ السبب في كون الجمل الكلي للرموز الأربعة يذهب إلى الرواية الرابعة وتتبعها الرواية السادسة، هو موضوع الغربة أو الاغتراب الذي تطرّق إليه المؤلّف في كلتا الروايتين.

ويلاحظ أنّ رؤية المؤلّف تحيل إلى اكتفائه بتأمّل واقع يجبط الأحلام ويبسط سبيلا للعزلة. ولذا جاءت الاقتباسات التي تشير إلى إحباط الأمل أكثر من سائر الاقتباسات التي تكوّن عناصر الاغتراب. ثمّ إنّ كثرة الإشارة إلى إحباط الأمل تدلّ على إحباط أمل المؤلّف عندما وقع في ضائقة ماديّة خانقة لما منعه يوسف السباعي الكتابة في الصّحف. ذلك لأنّه يرى فيه يسارياً خطيراً.³⁰⁹ وقد حدث ذلك في العهد السّاداتي. وهذا الذي أجبره على الغربة الاختيارية خارج وطنه في جنيف، سويسرا.

ويلاحظ أيضاً أنّ الرواية الثالثة تقل فيها الاقتباسات التي تشير إلى محور الاغتراب. ذلك لأنّ الرواية تناول شخصية واحدة فقط تتمثّل فيها عناصر الاغتراب، وهي صافية. بينما تتعدد الشخصيات التي تتجلى فيها العناصر المكوّنة للاغتراب في سائر الروايات المدروسة. وما يقوّي وجود هذا السبب هو وجود عنصر واحد لا يجسّده الشخصية، وهو الروح العدمية. فصفية عانت من إحباط الأمل واليأس، ثم اتخذت بديلاً لحزنها لكنها لم تتأثر بالروح العدمية.

³⁰⁹ لانا محمد خير مامكغ. 2002م. "بهاء طاهر قصصيا وروائيا". ص. 1.

وزيادة على ما تقدّم، إنّ النسبة العالية التي اكتشفتها النتيجة تشير إلى أنّ تصوير الشخصيات في روايات بهاء طاهر يدلُّ على انتمائه إلى الواقعية النقدية. ذلك أنّ الاغتراب يشكّل عنصراً من عناصر الواقعية النقدية. وهو بدوره يتكوّن من عناصر أربعة المذكورة في هذا المبحث. واللافت للنظر أنّ الظلم هو الذي يسبّب وقوع الأحوال التي تنطوي عليها كل تلك العناصر؛ حيث إنه يجعل الأقليات في المجتمع المعاصر تعاني من الحزن والبؤس لأجل إحباط الأمل الذي يسبّب اليأس ثمّ الروح العدمية ثمّ البحث عن بديل الحزن. وتلك الأحوال تجعل بعضاً من الأقليات ينتحر في النهاية كما حدث للراوي في الرواية الرابعة ومحمود عزمي عبد الظاهر في الرواية السادسة.^{٣٦٠}

المطلب الأول: إحباط الأمل

يقصد بإحباط الأمل: شعور الشخصية بأنّها لا تصل إلى غايتها أو هدفها. والإحباط يوجد حبكة للرواية. كما يجعلها تنجح.^{٣٦١} ويمكن فهم انصراف بعض الشخصيات إلى حياتها الخاصة وسقوطها بين أحضان النساء وإدمانها الخمر والمخدرات، يمكن فهم هذا شكلاً من أشكال الإحباط الاجتماعي والسياسي.^{٣٦٢} ويشير وجود الراوي نفسه في حالات الكابوس إلى أنّ في لاوعيه صورة مكدسة تؤكد حضورها على وعيه المنشطر بين ما هو واقعي وما هو حلمي يلهم به ويطمح إلى وجوده، كما هو الحال عند الراوي في الرواية الثانية.^{٣٦٣} وقد عرف راوي الرواية الأولى الذي لم يذكر اسمه أنّ هذا الجانب السلبي في حياته مبعثه الآخر، اللدود، متمثل في العوضى الذي قتل عمه وابن عمه، وهو رمز إلى السلطة المتكررة في أعمال الكاتب الفنية.

^{٣٦٠} بهاء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ٢٥٤. و بهاء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ٢٨٧.

^{٣٦١} نانسي كريس. ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م. تقنيات كتابة الرواية: تقنيات وتمارين لابتكار شخصيات ديناميكية ووجهات نظر ناجحة. (ترجمة) زينة جابر إدريس. بيروت - لبنان: الدار العربية للعلوم ناشرون. ط. ١. ص. ٢١٣.

^{٣٦٢} عبد الرحمان بن يطو. ٢٠١١م. "بناء الشخصية المركزية وفضاء أسفل المدينة: قصة "رمانة" للظاهر وطار أمودجا". الأثر - مجلة الآداب واللغات. الجزائر: جامعة ورقلة. (عدد خاص: أشغال الملتقى الدولي الخامس في تحليل الخطاب: "الخطاب الروائي عند الظاهر وطار): ٢٣-٢٤ فيغري. ص. ٨١.

^{٣٦٣} هشام محمد عبد الله وفيصل غازي النعيمي. ٢٠١٢م. "التحولات الميثولوجيا في رواية (قالت ضحى) لبهاء طاهر". مجلة التربية والعلم. جامعة الموصل: د. ن. ج. ١٩. عدد (٥): ص. ٢٣٩.

ولذا حدث للراوي ذلك التحوّل الجذري من الاغتراب والوحدة إلى الاتصال والتواصل والانضمام مع الجمهور، مع الآخرين الذين يعانون المصير نفسه، من الاستغراق في الذات والأحلام والذكريات والكابوس الصاحي إلى الخروج والنزول شيئاً فشيئاً إلى أرض الواقع والحياة والناس مهما خشنت وصلبت هذه الأرض.^{٣٦٤} يتمثل هذا التحول الجذري في انضمام الراوي، إلى الطلبة الثوار المطالبين بإنقاذ الوطن وتحريره من أيدي السلطة الظالمة، وبذله مجهوداً كبيراً في حماية حبيبته ليلي. ويتمثل كذلك في الطالب الفلسطيني، عصام، الذي كان رفيق السكن لسمير في الجامعة. رأى القارئ كيف استشهد فداءً لوطنه المأخوذ منه ومن آبائه وأجداده قهراً.^{٣٦٥}

على أنّ الكاتب اعتمد على طريقة الكشف، أو الطريقة الدرامية التي تتمثلها الشخصيات أمام المتلقي، وطريقة الحوار بين الشخصيات في إبراز مظاهر الاغتراب لدى الشخصيات، وهي كما أشير سابقاً: الحزن والقلق لسبب إحباط وخيبة الأمل واليأس. لذا وجد بديلاً في شرب الخمر: البيرة. وعلى هذا الأساس، يتجلى إحباط أمل الراوي المشارك في الحياة لسبب حادثة عظيمة حدثت في أسرته. وهي حادثة مقتل عمه وابن عمه. قام بهذه الجريمة الوحشية القاسية أحد أبناء الحاج صادق الذي يسمى العوضي. كان بينهما اختلاف عن أرض يريد أولاد الحاج أخذها منه قهراً. ولا يريد عم الراوي أن يتنازل عن حقه. فوجدوا فرصة لقتله كي يملكوا الأرض إلى الأبد.

وكان تأثير هذا الحدث على نفسية الراوي قوياً. أصبح حزينا للغاية من أجل هذه الجريمة. فبدأ يشرب ويكي كل ليلة كي يهرب من وطأة قساوة الحادثة. وفي هذا الصدد يسأل سمير الراوي: "حاولت كثيراً أن أفهمك فلم أبح. أيمكن حقا أن يكون كل هذا بسبب حكاية عمك؟"^{٣٦٦} وقد أثرت تلك الحادثة في تصرفاته الشخصية وفي معاملاته مع شخصيات أخرى. ومن ذلك يردّ لسوزي، زميلة سمير، عندما تشكو له عن قساوة الظروف الاجتماعية في تلك الأيام:

^{٣٦٤} شاعر عبد الحميد. ١٩٩٣ م. "الموت والحلم في عالم بهاء طاهر". ص. ٢٠٣.

^{٣٦٥} بهاء طاهر. ١٩٨٥ م. شرق النخيل. ص. ٩١.

^{٣٦٦} المصدر نفسه. ص. ٨٦.

"وما المفروض أن نفعل يا سوزي؟ هل نتحر؟ لا أستطيع.. جربت ولم أستطع."^{٣٦٧} إن هذه الجملة الصادرة منه تؤكد مدى إحباط أمله الذي يدفعه إلى أن يجرب الانتحار، مع أنه لم يستطع أن ينفذه.

وإضافة على ما سبق، إن تأثير هذه الجريمة يبدو واضحاً في حياته التعليمية في الجامعة. أصبح لا يحضر المحاضرات. ولا يذهب إلى المكتبة ليقراً الكتب كما كان يفعل من قبل. ومن ثم بدأ يرسب في امتحان الجامعة. وليس رسوباً واحداً، بل تكرر الرسوب حتى خاف والده من عواقب الأمور. فأرسل إليه رسالة يحثه على القراءة والمذاكرة وحضور المحاضرات. ويسأله فيها: "ولكن ما عذري أنا في خيبيتي؟"^{٣٦٨} وقال هذا بعد أن أخبره عن حالة دراسته الجامعية. أي إنه اضطر إلى قطع دراسته والعودة للبلد بعد وفاة والده، جد الراوي. ويبدو قطع دراسته حتماً حيث كان أبوه هو كفيله. أما بالنسبة للراوي فلم ير ظروفًا مشابهة لظروفه والتي تجعله يرسب مراراً.

ويبرز إحباط أمل ليلي لسبب ما حدث لحبيبها الراوي. حاولت قدر جهدها أن تعرف ما حدث له، أن تعرف سبب شقائه الذي سبب في شخصيته تغييراً كبيراً، لكن محاولتها فشلت. وسبب هذا وقوع شجارات بينهما. فبدأت تعاني من أزمة الحب التي سببت اغترابها. وبالتالي وجدت نفسها في عالم جديد لا تكاد تطيق عيشة فيها. ثم وجدت بديلاً في الانضمام لمظاهرة وثورة الطلبة، حتى لا تكون من "الطلبة الجبناء".^{٣٦٩}

إلا أن سمية لم تعجبه حماسها: فقد صارت مصممة على أنها لا تترك ميدان التحرير حتى بعد أن جنّ الليل. ويرى أنه ليس جيداً أن تبقى امرأة في مثل سنّها خارج بيتها للمظاهرة وسط الرجال. فمن هنا لاحظ في تصرفاتها هروباً من أزمة الحب. فكأنها انضمت للمظاهرة لكي تهرب من إحباط أملها في فشل حبها للراوي المشارك. ولذا يشكو لرفيق غرفته قائلاً: "تمنيت أن تفعل ذلك وهي مقتنعة به. وهي تفهم ماذا تفعل وليس مجرد الهروب من أزمة حب. وثانياً لأنه لا

^{٣٦٧} بجاء طاهر. ١٩٨٥م. شرق النخيل. ص. ٧٧.

^{٣٦٨} المصدر نفسه. ص. ٥.

^{٣٦٩} المصدر نفسه. ص. ٧.

معنى لبقاء بنت وحيدة في الليل والبرد وسط الرجال. يمكنها أن تعود في الصباح لو أرادت.^{٣٧٠}

على أنّ الكاتب صوّر بعضَ جواب عالم شخصياته الداخليّة بعمق أكثر. ومنها كما حدد بعضها عماد الدين سليم خطيب وبتروف: الحلم، والفانتازيا، والفرع، والقلق، والخوف، والألم، والفرح، والحزن، والمفاجأة، والذكرى، وغيرها.^{٣٧١} اعتمد الطريقة الدرامية في الكشف عن البعد الداخلي لشخصياته المحورية والثانوية. وكثيراً ما تتجلى جوانب البعد الداخلي للشخصيات عن طريق الراوي وحسين وليلى وسوزي وسمير. ومن خصائص شخصياته المحورية هذه، الضعف الإنساني، فهي ليست خارقة للعادة؛ لا تنهزم ولا تخطئ.^{٣٧٢} بل إنها شخصيات تتعرّض للخطأ والهزيمة الداخليّة.

وقد أظهر التحليل النتيجة نفسها في الرواية الثانية لبهاء طاهر. أي أنّ الاغتراب في هذه الرواية يتكوّن من تلك العناصر التي كوّن الاغتراب في الرواية الأولى. قد عاش الراوي المشارك - الذي هو الآخر غير معروف الاسم - في الحزن والقلق وفقدان التوازن الفكري والاجتماعي. وهذه تجليات مختلفة لمظهر الاغتراب.^{٣٧٣} وهذا الرجل الذي لم يسم نحيف الجسم ومخلص صادق وفقير ومؤرق مهموم وضعيف مجروح نفسياً ويجب الطبيعة ويعشق الأشجار والأزهار، وممزق وفاشل. يتأصل اغترابه من كونه في علاقة حب مع امرأة متزوجة: ضحى.

جاءت ضحى لتتوظف في مكتبه فأحبها. في البداية لم تُظهر حبا تجاهه. لكن مع مرور الوقت والأيام بادلتها شعوره مع كونها متزوجة. ضحى فتاة تنتمي إلى الطبقة الأرستقراطية المصرية. وهي متزوجة من رجل مشهور من مشاهير ما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢م ويستمر شهيراً بعدها. تتفتح علاقة الحب بينهما في القاهرة وبدأت تنضج واكتمل نضجها في روما، عاصمة إيطاليا.^{٣٧٤} ولما اكتمل الحب قالت ضحى للراوي في أحد مواقف اكتمال ذلك الحب: "نعم أنت لم تتعمد

^{٣٧٠} بهاء طاهر. ١٩٨٥م. شرق النخيل. ص. ٨٧.

^{٣٧١} عماد الدين سليم خطيب. ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م. في الأدب الحديث ونقده: عرض وتوثيق وتطبيق. ص. ١٠٥.

^{٣٧٢} محمد القاعود. ١٤١٥هـ/١٩٩٤م. الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني: دراسة ونقد. ص. ٧٨.

^{٣٧٣} متقدم الجابري. ٢٠٠٥م. "تجليات الاغتراب في شعر صلاح عبد الصبور". الأثر - مجلة الآداب واللغة - الجزائر: جامعة ورقلة. عدد (٤): ماي. ص.

^{٣٧٤} سيد البحراوي. ٢٠٠٣م. الأنواع النثرية في الأدب العربي المعاصر أجيال وملاحم. ص. ٧٣.

شيئاً وأنا لم أتعهد شيئاً ولكن هذا ما حدث فلا تقل أي شيء.^{٣٧٥}

ويرى القارئ ضحى تضحك وتقول هي سعيدة وقد استنار وجهها وإن عقلت به الدموع. وبعد ذلك يكتشف القارئ ضحى والراوي وهما يغوصان معاً في قلب الموجة التي تغوص إلى قرار بعيد، ثم تقذفهما الموجة إلى قمتها بينما يرتحف القلب ويرتعد الجسد وتساءله: ألا تعرفني؟ وتكرر السؤال بنبرة مستغربة تكاد تكون عاتبة "ألا تعرفني؟ وتقول له في هذه الموجة للحب: لا تبتسّم سأجمع أشلاءك من جديد وستكتمل. فيقول لها وكان الموج يغلي في الصدور: "لست أوسير ولكن أشلائي في صدري".^{٣٧٦}

وبعد أن رأى المتلقي علاقة الحب تشرق بين الراوي وضحى في مشهد مفعم بالشعور النفسي العاطفي وبعد أن تأتي لحظة اكتمال العشق عبر ممارسة الحب، تلك اللحظة التي لن ترجع مثلها أبداً، اكتشف وقتئذ أن المؤلف رغب في أن يقضي على ذلك العشق بمطرقة، فسدد عليه ضربة قاضية قضت عليه تماماً. فعل ذلك بأن جعل علاقة الحب تجهض بإجهاض ضحى، فدمر ذلك تلك العلاقة التي بينهما. فقد فكّرت ضحى في زوجها، وشعرت بالخيانة التي تمارسها مع الراوي وبالذنب من تلك الممارسات فبركتته فجأة. وندم الراوي على ذلك ندامة شديدة. هذا هو الذي سبب حالة حزنه وقلقه وانكساره. كما أنّ هذه الحادثة هي التي تمثّل إحباط أمله في الحب. واعترف بأنه عرف "ذلك الألم، أن يشعر الإنسان أنه مرفوض ومهان وضيئيل أمام نفسه ولكنه لا يملك إلا أن يجب سبب ذلك كله..."^{٣٧٧} ويعود من روما مكسوراً حزينا؛ لأنه فقد ضحى.^{٣٧٨}

ويتمثّل السبب الثاني لإحباط أمل الراوي في خيانتته لصديقه وزميله حاتم. كان الراوي وحاتم زميلين منذ الثانوية. وكانا نشيطين في المظاهرات. وقد بلغت صداقتهما الذروة عندما أنقذ الراوي حاتم أثناء إحدى المظاهرات التي كانا يخرجان

^{٣٧٥} بماء طاهر. ١٩٨٥م. قالت ضحى. ص. ٥٥.

^{٣٧٦} المصدر نفسه. ص. ٧٠.

^{٣٧٧} المصدر نفسه. ص. ٨٥.

^{٣٧٨} سيد البحراوي. ٢٠١٣م. الأنواع النثرية في الأدب العربي المعاصر أجيال وملاحم. ص. ٧٣.

لها مع سائر الزملاء. أشار الراوي إلى هذه الحادثة عندما يسترجع لزميلة عمله ورفيقة مكتبه وحببيته ضحى ماضيه السياسي. كانوا يتظاهرون في ميدان الإسماعيلية، الذي صار ميدان التحرير فيما بعد. وكانوا أمام معسكر الإنجليز الذي صار الهلتون والجامعة العربية فيما بعد. كانوا يهتفون بحماس ضد الإنجليز وضد بيفين ومن أجل الجلاء أمام ذلك المعسكر الكتيب.

ولسبب كان الراوي "أول من رأى نافذة زرقاء تفتح وجنديا يطل بزيه الكاكي ووجهه الأحمر وفي يده بندقية وكان حاتم إلى جوارى ورأسه ترتفع فوق بقية الرؤوس فدفعته بجسمي كله وسقطنا على الأرض معا وكشطت الرصاص بالكاد جزءا من حاجبه لكنها استقرت على الأرض." ^{٣٧٩} وقد أشار حاتم إلى هذه الحادثة الخطيرة عندما يسأل الراوي سبب الخيبة التي حلت عليه في قوله: "لم تخدمني كثيرا يوم أنقذت حياتي." ^{٣٨٠}

إنّ عدمَ تحمس الراوي يبدو غريباً لدى حاتم، ذلك لأنه لا يعرف الحقيقة التي أخفاها صديقه عنه. وحتى عندما سأله حاتم عن هذه الخيبة وإحباط الأمل وفقد الحماس، أجاب الراوي: "لو أعرف يا حاتم سر الخيبة التي حلت عليّ كما تقول لما سألتك ماذا أفعل؟" ^{٣٨١} والمعروف عنده أنّ الراوي أيام المدرسة الثانوية والجامعة كان يمتلئ بالحماس ويعشق المتفانيات. ومنها على سبيل المثال: "وصدور الثوار للرصاص فداؤك يا مصر." ^{٣٨٢}

وقد حدثت حادثة الخيانة عندما أخذتهم الشرطة في إحدى مظاهراتهم. اعترف الراوي خوفاً على وظيفته ومصير شقيقته، ^{٣٨٣} وهمس في أذن ضابط صغير يتولى حراستهم قبل التحقيق عن الذين نظّموا المظاهرة. فهمس الضابط في أذنه: "ولماذا تخون أصدقاءك؟ لماذا لا تصمت كالأخرين؟ إذا ثبت قليلا سيطلق سراحك.. وحين بدأوا ضربي؟ بعد

^{٣٧٩} بجاء طاهر. ١٩٨٥م. قالت ضحى. ص. ٢٠.

^{٣٨٠} المصدر نفسه. ص. ٤٣.

^{٣٨١} المصدر نفسه. والصفحة نفسها.

^{٣٨٢} المصدر نفسه. ص. ٤٣.

^{٣٨٣} عبد الرحمن أبو عوف. ١٩٩٣م. "تراجم الثورة والقهر في رواية جيل الستينيات". ص. ١٧٥.

ذلك لم أنطق ولم أعترف، ولكني لم أغفر لنفسي هذه اللحظة أبداً.^{٣٨٤} حبطت آمال الراوي من هنا. فترك السياسة وأصبح لا يتحمس في أي شيء بحماس حقيقي. كل ذلك نتيجة لحظة الضعف التي عانى منها، والتي جعلته يخون صديقه وزميله. ولا يستبعد أن يكون قد شعر بأنه عندما خان صديقه فقد خان أيضاً أحلامه وأفكاره. ولم يعد ممكناً أن يعود الشخص نفسه كما كان قبل الخيانة.^{٣٨٥}

ويبدو في الرواية الثالثة أنّ الشخصية المعتربة فيها هي صافية. ويتضح اغترابها في داخل وطنها وبين أهلها بداية من إحباط أملها في جبهة الحربي، ونهاية في حرمانها من الأخذ بالتأثر. كانت صافية تُخفي حباً للحربي الذي يأتي أحياناً إلى بيت الراوي الطفل الذي هو الآخر لم يذكر اسمه، والذي يكون له دور المشاهد المحب في الرواية. "كان حربي طويل القامة، بشوته خمرية، ولكن في خديه دائرتين مشربتين بحمرة الدماء يحددهما شاربهُ الأسود الذي يزيد وسامة بطرفيه المفتولين باستمرار. وكانت تبرز في رقبته العالية تفاعلة آدم تتحرك بشكل واضح ارتفاعاً وانخفاضاً كلما تكلم أو غنى، فقد كان صوته القوي هو أجمل ما فيه..."^{٣٨٦} وكانت صافية تلفت الأنظار بجمالها الأخاذ.^{٣٨٧}

ولا يستبعد أن تكون هناك علاقة حب محتملة بين هاتين الشخصيتين، رغم أنّ الراوي لا يستطيع أن يجزم بذلك. ويقول: "...غير أنني أذكر من بدء طفولتي أنّها وبقية أخواتي كن في العادة يلتصقن عليه من خلال الأبواب شبه المغلقة عندما يجلس مع أبي على الدكة في صحن الدار يتحدثان عن الزرع أو يشريان الشاي ويتسامران. ولا أذكر إن كانت هي أو واحدة من أخواتي التي قالت عنه حين فاجأتهن مرة وهن يجتلسن النظر إليه "سبحان الله.. مثل فلق القمر..."^{٣٨٨}

ويزيد الراوي الطفل: "وأذكر في مرة أخرى أنني رأيت خالتي صافية جالسة وحدها في صحن الدار ولم يكن في البيت

^{٣٨٤} بجاء طاهر. ١٩٨٥م. قالت ضحى. ص. ٧٤.

^{٣٨٥} المصدر نفسه. ص. ٧٥.

^{٣٨٦} بجاء طاهر. ١٩٩١م. خالتي صافية والدير. ص. ٤٧.

^{٣٨٧} المصدر نفسه. ص. ٤٥-٤٦.

^{٣٨٨} المصدر نفسه. ص. ٤٨.

سوانا وهي تغني بصوت خافت "حاربي قلبي". ومع أن أغنية أمونة البيضاء كانت أغنية مرحة راقصة للحن، إلا أنّ خالتي صافية كانت تجلس يومها على الأرض مقرفصة، ممسكة رأسها بين يديها وهي تغني الكلمات ببطء، بلحن التعديد الحزين...^{٣٨٩}

أمّا حربي فلم يكن هناك مقطع سردي في النص يشير إلى حبه لصافية أو العكس. إلا أنّ أفراد أسرة الراوي وجماعة القرية يتوقّعون أن يتقدم حربي لخطبة صافية. ولكن فاجأ حربي الكل لما تقدّم برضاه لخطبة صافية لخاله البك القنصل الأرمّل الذي يكبرها بعدة عقود،^{٣٩٠} وهو شخصيّة تنتمي إلى الطبقة الأرستقراطية في القرية. ويبدو أنّ هذا الفعل الانقلابي غير المتوقع هو الذي أحبط أمل صافية. فقد قال الراوي: "تقول ورد الشام إن صافية تضح وجوها لما حمل أبي إليها الخبر. وسألته بصوت خافت "حربي قال ذلك؟" فرد أبي مستسلما وهو يزفر "نعم يا بنتي حربي قال ذلك" تقول أختي إن صافية رفعت بعد ذلك رأسها وكانت عيناها نصف وجوها وكان فيهما البريق الغريب وقالت لأبي بهدوء: أنا موافقة يا والدي.. سأتزوج القنصل وسأعطيها ولدا." ^{٣٩١} وعلى هذا الأساس تبني سلسلة من أحداث ومشاهد مفاجئة لا بالشخصيات الرئيسة فحسب، وإنما بمحمل الشخصيات في الرواية.^{٣٩٢} كما يرجع دافع معظم تلك الأحداث والوقائع والمشاهد الحزينة إلى إحباط أمل صافية.

أمّا بالنسبة للرواية الرابعة، فقد اكتشف الباحث أنّها تعالج قضايا المغتربين: الراوي وبريجيت شيفر وإبراهيم ويوسف ويبدو إيبانيز وزوج بريجيت: ألبرت. والمغترب عند بهاء طاهر في هذه الرواية يدرك ويعي كما يرى ذلك السعيد الورقي.^{٣٩٣} ويبدو للباحث أنّ معظم هذه الشخصيات تظهر عندها جميع عناصر الاغتراب الأربعة، وتظهر بعض العناصر عند بعض الشخصيات الأخرى. فمثلا تظهر عند الراوي وبريجيت وألبرت ويوسف المصري كل العناصر الأربعة

^{٣٨٩} بهاء طاهر. ١٩٩١م. خالتي صافية والدير. ص. ٥٠.

^{٣٩٠} صلاح فضل. ١٤١٨هـ/١٩٩٧م. قراءة الصورة وصور القراءة. القاهرة: دار الشروق. ط. ١. ص. ٢٣.

^{٣٩١} بهاء طاهر. ١٩٩١م. خالتي صافية والدير. ص. ٥٥.

^{٣٩٢} سيد البحراوي. ٢٠٠٣م. الأنواع النثرية في الأدب العربي المعاصر أجيال وملاحم. ص. ٧٨.

^{٣٩٣} السعيد الورقي. ١٩٧٩م. اتجاهات القصة القصيرة في الأدب العربي المعاصر في مصر. الإسكندرية: الهيئة المصرية العامة للكتاب. ط. ١. ص. ٣٩٦.

للاغتراب، ويختفي بعضها عند بيدرو. يظهر عنده اليأس من واقعه السياسي الذي عانى منه وتعذب تحته في تشيلي حتى اضطر إلى اللجوء إلى الغربية الاضطرارية. ويختفي عنده إحباط الأمل والروح العدمية وكذلك بديل الحزن. ويظهر عنصران عند إبراهيم المحلاوي: إحباط الأمل واليأس، ويختفي عنصران: الروح العدمية وبديل الحزن.

وعلى هذا الأساس، قد اغترب الراوي لسبب الأحداث الماضية التي مرّ بها على المستويين: الاجتماعي والسياسي. وكان اغترابه إلى خارج الوطن اختيارياً. كانت حياته الاجتماعية والسياسية مفعمة بالهزائم وإحباطات آمال. يعاني هذا البطل من هزائم عدّة. اغترب في المرة الأولى بعد ذهاب عبد الناصر، الرئيس الذي آمن به الراوي، وتشبّث بمبادئه. كان في أيامه يترقى كالصاروخ في الصحيفة التي يعمل فيها. ويقول: "لم تكن تفصلي غير خطوة عن رئاسة التحرير، ثم جاء السادات فضاع كل شيء وأصبحت المستشار الذي لا يستشيريه أحد..."^{٣٩٤}

وتظهر الهزيمة الثانية للراوي في فقدته منار وولديه، وحاول جاهداً أن يعرف سبب هذه الهزيمة، لكن فشلت محاولته.^{٣٩٥} وزاد في شدة وطأة إحباط أمله اختيار ولده خالد أن يبقى مع أمه وأخته. ويقول الراوي في هذا الصدد: "وكان هذا من الأسباب التي دعيتني إلى السفر، كان صعباً عليّ أن أكون في المدينة نفسها مع أولادي ولكني بعيد عنهم. نرتب مواعيد للقاء مثل الأصدقاء والغرباء."^{٣٩٦}

وتتمثّل الهزيمة الثالثة للراوي بينه وبين رئيس التحرير في الصحيفة التي يعمل فيها. تعود أن يبذل أو يؤخّر أو ينقص من مساحة المقال بدعوى أنّ الإعلانات أكلت الصفحة أو أعادير أخرى واهية. ولم يزل يفعل ذلك حتى أثناء عمل الراوي خارج مصر بوصفه صحفياً مغضوباً عليه.^{٣٩٧} وتتجسد هزيمة الراوي للمرة الرابعة في رفضه من محبوبته بريجيت أن ينجبا طفلاً اشتاقت إليه المحبوبة كثيراً.^{٣٩٨} أما الهزيمة الخامسة في وجهة نظر الباحث فتظهر في رفض السلطة كتابه عن عبد

^{٣٩٤} بجاء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ٢٧-٢٨.

^{٣٩٥} المصدر نفسه. ص. ٢٩.

^{٣٩٦} المصدر نفسه. ص. ٩٣.

^{٣٩٧} المصدر نفسه. ص. ٧.

^{٣٩٨} المصدر نفسه. ص. ١٨٣.

الناصر الذي نشره على نفقاته الشخصية. ولم تتعاطف معه منار في هذه الهزيمة كما كانت تفعل من قبل.^{٣٩٩} ويبدو

جلياً أن هذه الهزائم التي عانى منها بطل الرواية هي نفسها الإحباطات التي تكوّن عنصراً من عناصر اغترابه.

ويتمثل إحباط أمل بريجيت شيفر واغترابها في تجربتها مع زوجها ألبرت، طالب إفريقي تعرّفت عليه في جامعتها في

النمسا؛ تحابا وتزوجا مع إصرار والدها على عدم الزواج حتى التخرّج. لقد عاش الزوجان حياة سعيدة بعد الزواج لمدة

قصيرة قبل أن تبدأ المتاعب وتتأزم الأحوال حتى ينتهي بهما الحال إلى فقدان طفلهما في شاطئ البحر في الخامسة

عصراً. فقدتا طفلهما لأجل العنصرية التي تتمسك بها بلدة النمسا وشعبها المتطرفين آنذاك. وبفقد بريجيت طفلها فقدت

نفسها وألبرت والعالم كله.^{٤٠٠} فقد دفعتهما تلك المأساة إلى الغربة الاختيارية كالراوي المشارك الذي هو الآخر لم يذكر

اسمه. كما أحبط أملها في المرة الثانية في المدينة المغتربة التي التقت بالراوي فيها وأحبته. اشتاقت إلى إنجاب طفل ثانٍ

يكون عوضاً لها لفقدان طفلها الأول لكن الراوي لم يوافقها في تلك المسألة. إذ إنه يراه سعيّاً وراء حلم بعيد.

فاستسلمت بالرغم منها.^{٤٠١}

وينتمي إبراهيم إلى الطبقة الأرستقراطية. يملك أبوه أرضاً في القرية. طرده مدينته للغربة في بيروت. يتمثل إحباط أمله في

أنه كان يبحث عن حب كامل مستحيل ولم يستطع أن يجده. كان ضد السلطة الحاكمة وقتئذ، فاستهدفته واعتقلته من

بين من اعتقلوا أيام الشباب وظل عازباً حتى وفاته. ويسمى أحد أعداء الثورة. كانت آماله كلها في محبوبته شادية

والزواج منها. قال مخاطباً الراوي: "نعم، كنت أحبها حقاً، ولم أحب في حياتي واحدة مثلما أحببتها. ولما طالت سنوات

الاعتقال كتبت لها من السجن أني أحررها من الارتباط بي. وإلى هنا فلم يكن هناك بأس، ولكنني... كتبت لها أيضاً أنها

إن أردت انتظاري فهي حرة في أن تسلي نفسها بالخروج مع من تشاء من الرجال..."^{٤٠٢}

^{٣٩٩} بجاء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ٢٩.

^{٤٠٠} المصدر نفسه. ص. ١١٥.

^{٤٠١} المصدر نفسه. ص. ١٨٢-١٨٣.

^{٤٠٢} المصدر نفسه. ص. ٣٦.

وبالفعل تركت شادية إبراهيم وتزوجت من صحفي آخر في الصحيفة نفسها يقال له: سي عبد اللطيف. ومن ثم فقد الآمال المكدّسة في قلبه وفقد السبيل إلى تحقيقها. ويتّضح إحباط أمله للمرة الثانية لما جاء إلى برنار، صحفي زميل المهنة للراوي من أهل البلد. جاء إليه لكي ينشر له أخبار بعض المضطهدين من قبّل إسرائيل في لبنان، لكن برنار صرّح له أنه لا يستطيع ذلك بسبب ما يحدث وقتئذٍ.^{٤٠٣}

ويلاحظ في الرّواية الخامسة، أنّ المعترين خمسة: الباشكاتب وسالم ولبنى وفوزية وفراج. وكلهم مغتربون في وطنهم وبين أهلهم. ويبدو أنّ الشخصيات هنا تمثّل عنصرين فقط من عناصر الاغتراب: إحباط الأمل واليأس. أمّا من جانب الباشكاتب فيتّضح أنه يتمثّل عنده عنصر واحد فقط: الأول. فقد أحبطت آماله بسبب المحن التي وقعت فيها أفراد أسرته: سالم وفوزية وشعبان. أصيب سالم بمرض عقلي، وهجر فوزية زوجها بسبب ضائقة مالية، وتوقف الحال في محلّ شعبان الذي يبيع القماش فيه. وقال الراوي العليم بكل شيء عن إحباط أمل الباشكاتب: "يتساءل مهموما ما الذي يحدث لهذه الأسرة؟ لماذا وقع سالم في هذه المحنة ولماذا لم تسعد فوزية في زواجها ولماذا لا يفلح ابني في تجارته؟"^{٤٠٤}

تلخّص التجارب السابقة مصدر إحباطات آماله. وإضافة إلى ذلك، كلّمه جابر، جرسون المقهى الذي يتردد إليه، عن سمسار يعرفه. يعمل مع حضرة الباشكاتب إن أراد أن يهدم بيته أو يبيعه أو يرّمه. وبعد تلميحات جابر، وصل البيت مهموماً. فقد جاءت فوزية إلى البيت، وذكره بجيؤها بالظروف الاقتصادية التي تحيط به. وبالتالي حدّث نفسه في مونولوج قائلاً: "من عليه الدور بينهما؟ شعبان الذي جاء قبل أيام يشكو له من مطالبة الضرائب الباهظة؟ أو ربما سالم الذي وقع في حب بنت غنية؟ أم فراج الذي تبخر كل تفاؤله مع تبخر مرتبه؟"^{٤٠٥} وهذا صيغة أخرى للاقتباس الذي مر في هذه الفقرة. الأمر الذي يشير إلى مدى إحباط أمل هذه الشخصية الذي يتمثل في الظروف القاسية المحيطة بأفراد أسرته الثلاثة.

^{٤٠٣} بماء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ٧٢.

^{٤٠٤} بماء طاهر. ٢٠٠١م. نقطة النور. ص. ١٥٥.

^{٤٠٥} المصدر نفسه. ص. ١٠٣.

ينتمي فراج إلى الطبقة التي أوجدتها التحولات الاجتماعية الاقتصادية في المجتمع المعاصر: البرجوازية الصغيرة.^{٤٠٦} فهو مثقف وموظف في شركة استيراد جديدة. ومن هنا يلاحظ أنّ دخله زهيد إذ إنه يتماشى مع حالة موظف جديد في شركة جديدة. وإضافة إلى ذلك كان والداه فقيرين يسكنان في القرية، في حين يسكن هو في المدينة في حي السيدة زينب. ومع مرور الأيام، ومع بذل كل مجهوداته في وظيفته، إلا إنه لم يحظ بأيّة ترقية. كما أنه لم يجد أيّ مقابل لمجهوداته. وبالتالي حاب أمله في البعثة التي كان يحلم بها، والتي كانت الشركة تعده بها. وأصبح يذم زوجته بعدم الوظيفة مع أنه تزوج بها عارفاً بأحوالها الاقتصادية ومستواها العلمي الأكاديمي. وتقول زوجته في هذا الصدد: "...وكل الأشياء التي توقعها لم تحدث: لا البعثة ولا المكافأة التشجيعية ولا الوقت الذي يسمح له بالدراسة العليا التي حلم بها. والمرتب الذي كان يكفي تماماً قبل سنتين أصبح الآن يتبخر قبل آخر الشهر بكثير..."^{٤٠٧}

ويتمثل إحباط أمل فوزية في إحباطات آمال زوجها. فقد آمنت بأنه يجبها قبل الزواج، ولذلك آمنت بأحلامه وآماله التي بنى عليها مستقبله ومستقبل أسرته. ولما فشل في تحقيق أحلامه وتحطمت آماله تحطّم مع ذلك عالمها وأحبط أملها. وأصبحت رخيصة عنده لا يحترمها ولا يعترف بقيمتها. وبدأت تشتكي لأخيها: "قل لي ماذا أفعل؟ فراج أخذني رخيصة، والواحدة منا يا سالم لا بد أن تكون عزيزة في بيتها. كيف تكون لي قيمة وأنا لا أعمل ولا أملك شيئاً؟ الرجل الآن يزن زوجته بما تدفعه للبيت."^{٤٠٨} إنّ هذا الاقتباس يشير إلى مادية الرجل وكون فوزية لا تشتغل. كما أنه يشير إلى إحساس الشخصية بالهزيمة، وإحباط أملها. وتزيد وسط دموع تنساب دون انقطاع: "هو يعتقد أنني أنا التي اشتريته ولكني لم أدفع كل الثمن الذي يستحقه. ومع حق لأن الغلظة غلطتي."^{٤٠٩}

ويبدو من هنا أنها تندم على كونها أخذته على علاته بدون أيّ تعب، وزوجها هو رخيصة من بيت أسرتها. وربما لو

^{٤٠٦} بماء طاهر. ١٩٨٥م. قالت ضحى. ص. ١٣.

^{٤٠٧} بماء طاهر. ٢٠٠١م. نقطة النور. ص. ٩٩.

^{٤٠٨} المصدر نفسه. ص. ١٠٢.

^{٤٠٩} المصدر نفسه. والصفحة نفسها.

تعب قليلاً لتغييرت الحالة والظروف. كما أنه بدلاً من أن يوجه اللوم إليها بأنها لا تعمل، لو عمل عملاً إضافياً بعد انتهاء الدوام لكان أفضل، ولجلب للأسرة دخلاً يساعد في تصريف البيت. تشكو لأخيها سالم في هذا الصدد: "بدلاً من أن يشد حيله ويبحث عن عمل على تاكسي بعد الظهر أو أي شغل إضافي مثل شغلك ومثل بقية خلق الله فهو يدفن نفسه ليل نهار في الوظيفة (الهاب) ويعبرني بأي لا أعمل."^{٤١٠}

ومما زاد على إحساس فوزية بإحباط الأمل، أنّ زوجها تركها مع ابنهما الصغير في بيت أسرتهما لمدة بضعة أشهر بدون أن تسمع شيئاً منه. ورجع فجأة ذات يوم وهو يوم الخميس بعد أن تنبأ بذلك الباشكاتب. اعتذر للأسرة على ما فعل، وسامحته الأسرة بسبب فوزية وسلوم ابنها مع التحذير بأن لا يتكرر ذلك في المستقبل. وعدّهم بأنّ هناك إعاقة تأتي من السعودية، وعندما حصل عليها تتحسن الظروف إن شاء الله. لكن ما جاءت تلك الإعاقة التي كان يتكلم عنها. وعندما أجبرت الظروف الاقتصادية القاسية الأسرة على بيع البيت، وقبض والدها مبلغاً من المال أرادت أن تأخذ نصيبها منه وأن تعرف كيف ستسير الأمور بعد ذلك. ونقول لأخيها في حرص شديد عن طريق الراوي بضمير الغائب: "عليها الآن أن تحمي مستقبلها ومستقبل سلوم. لم تأت الإعاقة التي انتظرها فراج ولا تظن أنها ستأتي وهي لا تريد أن تكون تحت رحمته أو تحت رحمة أي مخلوق."^{٤١١}

ويتمثل إحباط أمل سالم في خسارة محبوبته. قد أحب سالم لبنى. واكتشف أنه يكون إنساناً آخر معها غير نفسه أو غير ذاته التي عرفها قبل المراهقة وأثناءها. كان لا يستطيع التحدث إلى أي امرأة. فقد كانت له تجربتان مع النساء، الأولى مع ثريا^{٤١٢}، والأخرى مع الست عنايات.^{٤١٣} وعاهد نفسه نتيجة ذلك على أن يتجنب أيّ علاقة مع النساء. لكن معها استطاع أن يتكلم وأن ينطلق لسانه بمثل الأحاديث التي يتحدث عنها العشاق. ومع شدة حبه لها، إلا إنه

^{٤١٠} بماء طاهر. ٢٠٠١م. نقطة النور. ص. ١٨١.

^{٤١١} المصدر نفسه. ص. ٢٣٠.

^{٤١٢} المصدر نفسه. ص. ٦٣-٦٤.

^{٤١٣} المصدر نفسه. ص. ٦٦-٦٧.

فقدتها في حادثة ممارسة الحب وتحقق العشق بينهما. وذلك لما زارته حالته النفسية التي يفقد وعيه فيها ويطلق سباب وشتائم شنيعة أثناءها.^{٤١٤} وترك بيتها بدون معرفة كيف فعل ذلك. كما أنّ هذا هو لقاءهما الأخير قبل أن تسافر إلى روما لمعالجة مرضها.^{٤١٥} وفي النهاية تلخّص هذه التجربة إحباط أمل سالم وتحطّم عالمه.

ويظهر إحباط لبني في فقدتها لسالم. كانت هي الأخرى تبادله الحب. ومع أنّها كرهت جميع الرجال وعاهدت نفسها على اجتناب الرجال إلا أنّها ربما بسبب الارتباط الروحي بينها وبين سالم، أحبته في المرة الأولى التي رآته في الجامعة. فحاولت أن تقترب منه. والسبب الذي دعاها إلى معاهدة نفسها على أن تجتنب الرجال هو وقوعها في حبل الاغتصاب.^{٤١٦} ومع تبادل الحب بينهما إلا أنّها خسرت في الحادثة التي تمت الإشارة إليها قبل قليل. أضف إلى ذلك القبض عليها من قبل الشرطة، وتم ذلك عندما وجدت الشرطة في غرفة نومها نشرات ضد السلطة الحاكمة.

وقبل لقاء القبض على لبني قد انضمت إلى جماعة ساخطة على السلطة الحاكمة وكانت تشاركهم في برامجهم وفي نضالهم ضد تلك السلطة. فقبضت وسجّنت ومن ثم أصيبت بالانهيار العصبي. وكانت قد سجلت استغرابها من هذه النهاية لحبها الذي أحدث ضجة كبيرة عندها بقولها: "يا ربي! كل هذه الضجة عن الحب تنتهي هذه النهاية!"^{٤١٧} واستنتجت أنه لا يوجد في الدنيا الحب الحقيقي.

ولكنّ لبني أخطأت في حكمها السابق، من أنه لا يوجد الحب الحقيقي في الدنيا. حيث إنّ الذي حدث لها هو أنّ حببها مريض؛ يعاني اختلال توازن العقل كما أشير. والمعتبر هنا هو أنّ عودة حالة سالم هي التي سببت الافتراق بينهما، كما أنّها هي التي سببت إحباط أمل كليهما في الحب. ثمّ إنّ زيارتها لسالم بعد رجوعها من روما يناهني مقولتها من أنه لا يوجد حب حقيقي في هذه الدنيا. حيث إنّ القارئ ليسأل لماذا الزيارة؟ أليس ذلك إشارة إلى أنّ حبها لسالم

^{٤١٤} بماء طاهر. ٢٠٠١م. نقطة النور. ص. ١٣٩.

^{٤١٥} المصدر نفسه. ص. ١٩٧.

^{٤١٦} المصدر نفسه. ص. ٨٧-٨٨.

^{٤١٧} المصدر نفسه. ص. ١٣٧.

حقيقي ولم يمّت بعد مرور كل تلك السنين؟

وفي الرواية السادسة، اكتشف الباحث أنّ عدد المعتربين فيها أربعة: محمود عزمي وكاثرين ومليكة وشيخ يحيى. أحبط أمل محمود عزمي للمرة الأولى لما كان شاباً. فكّر أيامها أن يهتم بالدراسة ليحصل على الشهادة ويدخل مدرسة الحقوق مثلما كان معظم الطلبة يحملون. اعتقد أنه مهياً لذلك لأنّ أكثر ما كان يستهويه في المدرسة حصص الخطابة والأدب لولا أنّ أباه أفلس. "أغراه تاجر يوناني بمكاسب كبيرة من استيراد زيت الزيتون من بلده ثم أغرقه بالديون وفوائد الديون إلى أن انتزع في النهاية دكان الموسكي لنفسه. لم يبق أي مورد للبيت الكبير المليء بالجواري وبالخدم،"^{٤١٨} فاجتهد أبوه إلى أن ألحقه بالشرطة.

وفقد الضابط محمود أمله للمرة الثانية لما فقد محبوبته نعمة السمر، الجارية التي تخدم في بيته والتي ترعرع معها وتبادلا الحب بعد ما كبراً. فقدّها يوماً فجأة بلا سابق إنذار.^{٤١٩} وذلك عندما فرت من البيت بدون كلمة. وتحطّم عالمه بفقدانها. لأنه كان يحبها حبا حقيقيا، ولم يدرك ذلك إلا بعد فقدانها. ويقول في هذا الصدد: "قضيت أياماً وأسابيع ابحت عنها في المستشفيات وأقسام الشرطة والسجون وحتى في بيوت البغاء."^{٤٢٠}

ولعلّ السبب الذي دعى نعيمة إلى الهروب سؤالها محمود إن كان يحبها. ولعلّ الإجابة لم تقنعها، فقررت الهروب سرّاً. ويقول محمود ناقلاً الحوار الذي دار بينهما: "سيدي محمود هل تحبني؟ زجرتها: ما هذا الكلام الفارغ يا بنت؟ لو عدت إلى هذا الكلام سأرميك في الشارع! فضحكت وهي تقول: معك حق يا سيدي. كلام فارغ. وأخفت رأسها في صدري وهي تكرر وسط ضحكاتهما: أما كلام فارغ!"^{٤٢١} فيبدو أنّ هذا الحوار الخارجي يعبر عن السؤال والجواب ورد فعل كل من السائل والمسؤول.

^{٤١٨} بماء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ١٦.

^{٤١٩} المصدر نفسه. ص. ٨٥.

^{٤٢٠} المصدر نفسه. والصفحة نفسها.

^{٤٢١} المصدر نفسه. والصفحة نفسها.

ويتمثل إحباط أمل محمود عزمي في المرة الثالثة بعد موت أو انتحار مليكة. فقد جعلته تلك المأساة ينهي علاقته العاطفية مع زوجه كاثرين مع أنه يجب أن يبقيها معه وأن تتوطد العلاقة بينهما. يقول المأمور محمود: "أظن أنها انتهت في داخلي بعد ما جرى لمليكة. ترقد بيني وبين كاثرين كل ليلة لتبعدي عنها وتبعدها عني ثم تقتحمني في المنام."^{٤٢٢} ويتجلى إحباط أمله في المرة الرابعة في مرض أخت زوجته: فيونا. قد أحبها خفية لكن زوجه اكتشفته. ومن أجل حبه إياها أصبح قلقاً عليها كل القلق، وكل ما يريد منها هو أن تعيش. وحاولت أن تطلب مساعدة من الشيخ يحيى، إذ إنه يعرف أمراضاً كثيرة ودواءها. إلا إنها لم تنجح. فقد قال لها الشيخ إن أختها وزوجها لا يجبان الواحة وأهلها. واستدار إلى بستانه التي يعتكف فيها. وتقول كاثرين في هذا الصدد: "وقفت فيونا تتابعه ببصرها إلى أن اختفى وظللت أنا أيضاً كالمشلولة في مكاني أراقبها في عجز. تحركت نحو الحمامين وهي تسعل بشدة وتضع يداً على فمها وأشارت لي بيدها الأخرى للرجع."^{٤٢٣}

ويعتق الكاتب من إحباط أمل محمود بعد أن سمع إلى سعالها ذات ليلة: "بالفعل لم ينقطع سعالها المؤلم طول الليل. يزداد سوءاً يوماً بعد يوم ومعه شعوري بالعجز..."^{٤٢٤} ويؤكد هذا الاقتباس تألم فيونا لسبب مرضها، وعجز محمود من أن يصنع شيئاً على حالة محبوبته التي يحبها خفية. ومما سشير إلى حبه إياها خفية، والذي يزيد حرصه على شفائها وحياتها ما يقوله: "...ثم تأتي سعلة خافتة من بعيد فيملاً الغرفة برق مفاجئ، يسترخي جسدي المشدود ويحل بي سلام غريب. يأس مريح واستسلام نهائي: لا مهرب فلا تحاول."^{٤٢٥}

على أنّ الشيخ يحيى سامح أسرة المأمور وساعد فيونا ببعض الأعشاب. كما أرسل زبيدة، واحدة من أهل الواحة لتراقب على العلاج والمداواة. وفرح محمود فرحاً شديداً على هذا التطور الذي أيقظ لطفته في احتمال علاجها. لكن أحبط أمله

^{٤٢٢} بماء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ٢٠٣.

^{٤٢٣} المصدر نفسه. ص. ٢١٣.

^{٤٢٤} المصدر نفسه. ص. ٢٦١-٢٦٢.

^{٤٢٥} المصدر نفسه. ص. ٢٧١.

لما اكتشف أنّ كل الأدوية التي أرسلها الشيخ وجرّبتها لا يأذن الله لها بالشفاء. ومن ثم بدت في نظره أنّها تموت، فلذا ازداد خوفه عليها وجزعه مما يحدث لها.^{٤٢٦}

كما يسأل محمود نفسه يوماً في مونولوج ينمّ عن مدى خوفه واضطرابه وكون مرض فيونا مسألة تفرقة: "هل ستعيش؟ لا بد أن تعيش، لو أحد يستحق الحياة في هذا البيت فلا يوجد سواها. لا أنا ولا كاثرين."^{٤٢٧} ومما يزيد خوفه هو تدهور حالتها بشكل مستمر كما يلاحظ يوماً بعد أن جرى بين الشقيقتين نقاش عن تطور بحث كاثرين في مقر مقبرة الإسكندر الأكبر: "سكنت لكي رأيت الدماء تغيب عن وجهها وهي تلهث بينما اعتمدت بيديها معاً على المائدة ونهضت بصعوبة ثم بدأت تترنح فجريت أسندها بيدي قبل أن تهوي إلى الأرض."^{٤٢٨}

وحبط أمل كاثرين نتيجة تجربة مايكل النعيسة.^{٤٢٩} تزوجت من مايكل الذي أوحى في بداية أمره بأنه يحب فيونا، أختها الصغيرة. ووافقت الأخت على ذلك وساحتها. إذ إنه باغت كاثرين وسائر أفراد أسرهما بخبطته لها، ولذا تعتقد أنّها سرقتة منها. وقد صرّح فيما بعد بأنه تزوج بها لكي يعذب نفسه ويعذب زوجته لمدة أربع سنوات كاملة. فقد سأله مرة: "لماذا تزوجتني؟ فردّ على طريقته في السخرية لكي أعذب نفسي."^{٤٣٠} وفي النهاية فشل هذا الزواج. فشل لأنه لم يوضع على أساس الحب. وكانت نتيجته مشاحنات وشجارات زوجية واحتقارات يومية. فمن هنا يظهر إحباط أملها في هذه التجارب اليومية الحزينة. إذ إنّها أملت في أن تعيش حياة زوجية، حتى إن لم تكون سعيدة لأجل أنّها تعتبر نفسها سارقة الرجال، فعلى الأقل أن تكون عادية مقبولة. ولم تستطع احتمال استمرار الحياة في مدينتها الصغيرة في أيرلندا بعد وفاة زوجها، فاضطرت إلى الغربة الاختيارية إلى مصر لتواصل البحث في هويّتها: التاريخ المصري القديم.^{٤٣١}

^{٤٢٦} بجاء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ٢٨١-٢٨٢.

^{٤٢٧} المصدر نفسه. ص. ٢٦٢.

^{٤٢٨} المصدر نفسه. ص. ٢٨١-٢٨٢.

^{٤٢٩} المصدر نفسه. ص. ١٩.

^{٤٣٠} المصدر نفسه. ص. ٢٦.

^{٤٣١} المصدر نفسه. ص. ٢٨.

وحبط أمل كاثرين للمرة الثانية نتيجة فشل زواجها مع محمود. وتتأصل المسألة من كون زوجها يتصف بتقلبات روحية. يبدو لها ودودا ولطيفا تارة، وفاترا بارداً تارة أخرى. يزور النساء البغاء كثيرا ويدمن شرب الخمر. وكانت عنده حبيبة تسمى نعمة السمراء التي أشير إليها. وما أحبّ أحداً كما أحبّها. وربما لا يستطيع لذلك روحه أن يشارك حبّها مع غيرها. وقد ساعدت الظروف والتجربات في الواحة في ابتعاد كل منهما عن الآخر. فمثلا يتصرف محمود كمذنب فيما حدث كسر ساق إبراهيم الشاويش. ويعتقد أنّ زيارة كاثرين هي التي سببت ذلك. فلذا يراها مذنبه نوعاما. تقول كاثرين: "يتصرف كما لو كان مسؤولاً عما جرى للجندي المسكين. الأغرب أنه يتحدث بنوع من التائب عن زيارتي للمعبد كما لو كانت هي السبب في كسر ساق إبراهيم! يجب أن يفهم أنها مجرد حادثة ولا أحد مسؤول عن القدر."^{٤٣٢}

ومما لا شك فيه أنّ كاثرين لا تشارك محمود رأيه في هذه المسألة. فتعتبر الحادثة حادثة طبيعية وقعت بدافع القدر. ويزيد شعور كل منهما بالتباعد عن الآخر عمقاً عندما طردا مليكة من بيتهما بعد أنّ نزعا عنها لثامها من وجهها. فكان هذا سبب التعرّف عليها، وإلحاح المجتمع على قتلها لإزالة دنس ومصائب الغولة. ونتيجة هذه المأساة، عندما اكتشفوا بأنهما ساعدا كثيراً في قتل أو انتحار مليكة بطريقة أو بأخرى، أصبحا كالغريبين تماما ولم يكونا زوجين في أيّ وقت من الأوقات.

وزيادة على هذا، زارت كاثرين معبد أم عبيدة لاستمرار بحثها. ونكّرت قبل الذهاب، لأنّ محمود منعها من الخروج بسبب كراهة الأجواد والزجالة لذلك. وعندما اكتشفوا أنّها كاثرين مع لثام الوجه، رجموها وأنقذها جندي من جنود محمود. وقد اتّحرت العلاقة بينهما بعد هذه الحادثة. ويقول محمود: "انتهينا بعد حادث الرجم إلى تجاهل كامل من الطرفين. تجاهل يكاد يكون ودياً."^{٤٣٣} ومن جانب كاثرين، يبدو أنّها لاحظت حب زوجها لفيونا. ومع محاولاته في

^{٤٣٢} بماء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ١٣٩.

^{٤٣٣} المصدر نفسه. ص. ٢٧١.

إخفاء ذلك، إلا إنها اكتشفته. وعندما حدث ذلك بلغ إحباط أملها في فشل زواجها ما بلغ. فقررت بالتالي انهاء العلاقة بينهما. لكنها ما استطاعت ذلك، حيث إنَّ إحباط أمل زوجها حول حالة فيونا (وقضايا أخرى) دفعه في النهاية إلى الانتحار.^{٤٣٤}

وقد حبط أمل الشيخ يحيى للمرة الأولى نتيجة الظروف الاجتماعية السيئة التي وجد نفسه فيها. تتمثل تلك الظروف في الحروب الأهلية التي تشب باستمرار بين عشيرته الغربين وعشيرة شيخ صابر الشرقيين. كانت عنده آمال في توقيفها إذ إنه يكرهها. مرة ذهب إلى الحرب مع عشيرته بعد أن أقسم بأنه لا تراجع حتى تفنى إحدى العشيرتين. وفي اليوم الأول كان يطلق النيران ويدير بصره ليعرف مواضع الضعف في صفوف خصومه وعشيرته، يفكر في كيف يفيد من ثغراتهم في قتال الغد وبعد الغد إلى أن يتحقق الوعد بفناء عشيرة منهم. لكن قبل أن ينتصف نهار اليوم رأى بعض رجال عشيرته ينهزمون وينسحبون. لم ينفع صراخه لهم مذكراً بالقسم، "ولم تنفع إهانات النساء. ولا شتائمهن لمن يفرون من الحرب."^{٤٣٥} وبالتالي أحبط أمله في تحسن ظروف العشيرتين وتوقف الحروب الأهلية بينهما.

وحبط أمل خال مليكة للمرة الثانية نتيجة الظروف التي تحيط بمليكة، ابنة أخته. كانت طفلة وبتناً وامراًً طيبة. كأنها ليست من صلب مجتمعه البدائي، إذ إنها تختلف عن سائر أبناء وبنات عشيرته بجمالها الباهر وذكائها الفريد وإبداعها الجميلة. بدت منها هذه الصفات وسط مجتمعه البدائي. ومنذ طفولتها أرى ذلك المجتمع إلا أن يفرض عليها كل عاداته الجميلة والسيئة، المقبولة والمرفوضة؛ فتمردت على ذلك كله. فكانت تتلثم وتتنكر وتظهر في ثوب الرجال حتى تتمكن من الذهاب إلى خالها، الشيخ يحيى،^{٤٣٦} الرجل الوحيد الذي أحبته وكانت ترتاح بمجالسته. ربما لأنه هو الآخر يكره معظم الممارسات الاجتماعية التي يمارسها مجتمعه. وكانت أمها تضربها إذا لاحظت ذلك. وكان الشيخ يأمل كثيراً في حمايتها. لكن أمله حبط ولم يستطع أن يحميها وهي طفلة، كما أنه لم يستطع أن يحميها من الزواج بعجوز فرضه المجتمع

^{٤٣٤} بجاء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ٢٨٧.

^{٤٣٥} المصدر نفسه. ص. ١٨٢.

^{٤٣٦} المصدر نفسه. ص. ٧٢.

عليها، مع أنها كرهته تماماً. وتركت بيته نتيجة لذلك.

وقد حبط أمل الشيخ يحيى نهائياً لما علم أنها قتلت نفسها، أو أنّ المجتمع الغاضب عليها قتلها قهراً ليرتفع بذلك - كما يزعم - مصيبة الغولة على أفرادها ومكانه؛^{٤٣٧} كلا التفسير صحيح. لكن ما قاله المجتمع للشيخ هو أنها انتحرت، إذ إنه ليس موجوداً عندما وقعت المأساة. وكان هو الوحيد الذي اشتاقت إلى رؤيته والاستماع إليه في لحظاتها الأخيرة. سجنّت نفسها في غرفتها ورفضت أن تكلم واحداً. واستطاعوا أن يكسروا باب الغرفة. ويقول راوي المأساة: "تلقتها مليكة وهي تقف وسط الغرفة بشعر مهوش ملطخ بالدم وتمسك بيدها سكيناً كبيراً، حاولت خديجة أن تهدأها ومدت لها يدها بطبق من الطعام فبصقت مليكة وسألته وهي تبكي لماذا باعته؟ لماذا رمته لمعبد؟ ثم أدارت السكين نحوها وأعمدته في صدرها وهي تلعن كل الرجال والنساء ونافورة الدم تندفع منها نحو أمها."^{٤٣٨}

ومن جانب مليكة يلاحظ أنها اغتربت في مجتمعها وبين أهلها. وقد أشار الشيخ يحيى أنها تختلف عن سائر البنات والأبناء في مجتمعها البدائي في الفقرة السابقة. وكانت أملها يتلخص في أن تجد من يوافقها ويشاركها أفكارها. فوجدت ذلك في كاثرين ومحمود. أرادت أن تصاحبها آملة ربما يفهماها. لكن من الأسف الشديد لم يحدث ذلك التفاهم والمصاحبة. فعلى هذا الأساس، حبط أملها أولاً في أنها ما استطاعت التحرر من الرقابة التي فرضها عليها مجتمعها. فقد فرض عليها زوجاً عجوزاً في سن جدها، ومع ضعفها الاجتماعي إلا أنها رفضته تماماً. وكانت أمها تضربها لرفضها ذلك العجوز.

وحبط أملها ثانياً عندما أخطأت كاثرين فهم نيها في المصادقة فطردتها هي ومحمود، إضافة إلى الضرب بجريدة النخيل.^{٤٣٩} وجعلتها هذه الحادثة تكشف غطاءها وتلثمها فعرف أفراد المجتمع أنها مليكة. خرجت من بيتها وهي غولة. ويقصد بالغولة امرأة مات زوجها الذي دخل بها. ويترتب عليها البقاء في بيتها لمدة أربعة أشهر وعشرة أيام بلا

^{٤٣٧} بهاء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ١٨٥.

^{٤٣٨} المصدر نفسه. ص. ١٨٥.

^{٤٣٩} المصدر نفسه. ص. ١٨٢-١٨٣.

استحمام، ويحرم عليها التحلي بالزينة. تبقى بثوب واحد حتى انتهاء تلك المدّة المذكورة. وقد آمنوا بأنّ خروج الغولة من بيتها يجلب للمجتمع مصائب عدة،^{٤٤٠} لا يتخيّلها العقل. تمس المصائب الأحياء والنباتات والأشجار وغيرها. ويتمثل الحل الوحيد لرفع تلك المصائب وزوالها في قتل الغولة، فقتلوا مليكة، إن صحّ هذا التفسير.^{٤٤١}

المطلب الثاني: اليأس

يعقب إحباط الأمل اليأس، ويقصد به استسلام الشخصية تجاه موقف معيّن. حينما ترى الشخصية أنّها لا تستطيع أن تحقّق آمالها، وبالتالي تحبّط تلك الآمال، يراها القارئ تستسلم وتيأس نتيجة ذلك. وكما أشير إليه من قبل، قد أظهرت نتيجة التحليل أنّ اليأس هو العنصر الثاني من العناصر التي كوّنت الاغتراب.

وعلى أساس ما تقدّم، يظهر بأس الراوي المشارك في الرواية الأولى من محيطه البيئي ومن الحياة عموماً عندما تلقى خبر المأساة التي حلت بأسرته والتي تتمثل في مقتل عمه الذي لم يسمّ وابن عمه، حسين، الحادثة التي دبرها ونقّدها العوضي، إحدى أبناء الحاج صادق.^{٤٤٢} غيّرت هذه الحادثة مجرى حياة الراوي المشارك. وتركت أثراً واضحاً يراه شخصيات أخرى لها علاقة به، مثلاً: ليلي وسمير وسوزي. ولأجل هذه الحادثة سألته ليلي مرة لماذا لا تتركه. لماذا لا تفعل هذا وهي تعرف أنه يريد ذلك فينتهي كل شيء. فكانت إجابته هي: "أنا لا أستحق أن تهمني بي. يجب أن تقتنعي بذلك يا ليلي أنا لا أستحق أن يهتم بي إنسان."^{٤٤٣}

وكان قبل هذا قد اقترح الراوي لحبيته ليلي أن يصبحا صديقين، لأنه ربما لا يستطيع الاستمرار بالحب في حالته الراهنة. ورضيت بذلك. إلا أنّها ما استطاعت ذلك فعلا، إذ إنّ حبّه استمر في قلبها عبر تفقدها له، كما كانت تسأل عنه سمير كل صباح. وعندما رآته سألته عن السر الذي يؤرقه. ولماذا لا يأتي إلى المحاضرات ولا يقرأ كما كان يفعل. مع أنه هو

^{٤٤٠} بماء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ١٦١.

^{٤٤١} المصدر نفسه. ص. ١٨٥.

^{٤٤٢} بماء طاهر. ١٩٨٥م. شرق النخيل. ص. ٦٨-٦٩.

^{٤٤٣} المصدر نفسه. ص. ١٠.

الذي حبب إليها القراءة حتى أصبحت لا تطيق الحياة بدونها؟ لكنه تفادى الإجابة. وبدلاً من ذلك يكرّر لها أنه لا يستحق اهتمامها ولا اهتمام أيّ إنسان آخر لأنه فشل في دراسته الجامعية نتيجة هذه المأساة. فيقول لها: "قلت لك أنا لا أستحق اهتمامك."^{٤٤٤}

ويقول الراوي المشارك لسوزي صاحبة رفيق غرفته سمير أثناء حكايتها له عن دكتور طبي يتساهل في القيام بواجبه بوصفه طبيياً، وكان يجري وراء الممرضات أو ينام على سريره حتى الصباح؛ فسمته ابن حرام: "أنت قلت إنه ابن حرام، وكل ما أعرفه يا سوزي إن هذه الدنيا مملوءة بأولاد الحرام."^{٤٤٥} ويظهر من هنا أنّ ما أنطقه هذه العبارة هو تلك الحادثة التي تأثر بها كثيراً. فهو يرى أنه لا يمكن القيام بهذا الفعل الشنيع إلا أولاد الحرام وهم أولاد الحاج صادق.

ويظهر يأس ليلي لما حاولت كل ما تطيقه كي تردّ للراوي عقله وتوازنه. لكنه أبقى أن يستجيب لها. ربما يرى أنه إذا صرح لها بمشكلاته يصرفها هذا عن دراستها فيزيد عدد الفاشلين من طالب إلى طالب وطالبة. ومن هنا يئست وتركته في شأنه. إلا أنها أعطته نصيحة بوصفها زميلة فصل، لا بوصفها حبيبة له. وتقول: "إن كنت لا تريد حضور المحاضرات فلا تفعل ذلك الآن. ولكن تستطيع على الأقل أن تأتي إلى الكلية وأن تقرأ كما كنت تفعل منذ عامين. منذ ثلاثة أعوام ربما؟..."^{٤٤٦}

ومما يشير إلى يأس ليلي انضمامها إلى زمرة الطلاب المتظاهرين للمشاركة في المظاهرة التي يقومون بها في ميدان التحرير. إلا أنّ سمير، بوصفه واحداً من المتظاهرين وبوصفه زميلاً للراوي، لاحظ أنّ السبب الرئيس الذي دفعها إلى المشاركة هو الهروب من أزمة الحب. وبالتالي لم تأت إلى المظاهرة وهي راضية بها. يقول سمير: "تمنيت أن تفعل ذلك وهي مقتنعة به. وهي تفهم ماذا تفعل وليس مجرد الهروب من أزمة حب. وثانياً لأنه لا معنى لبقاء بنت وحيدة في الليل والبرد وسط

^{٤٤٤} بجاء طاهر. ١٩٨٥م. شرق النخيل. ص. ١٠.

^{٤٤٥} المصدر نفسه. ص. ٢٤.

^{٤٤٦} المصدر نفسه. ص. ٩.

الرجال.^{٤٤٧} وعلى أساس المناقشة السابقة، يبدو أنّ الشّخصيّات التي يظهر من خلالها عنصر اليأس هما شخصيتان في هذه الرواية: الراوي وليلي.

أمّا في الرواية الثانية، فقد لاحظ الباحث أنّ الراوي وحاتم هما الشّخصيتان الوحيدتان اللتان ظهر هذا العنصر في سلوكهما وتصرفاتهما. يظهر يأس الراوي المشارك للمرة الأولى بعد أن خان صديقه وزميله حاتم.^{٤٤٨} وللمرة الثانية يئس بعد أن حبطت آماله للحصول على محبوبته ضحى. ونتيجة ليأسه لما خان صديقه، يصرّح لزميلة عمله ضحى (حينئذ لم يصبحا حبيبين) بحقيقة عن سلوكه الذي ينمّ عن ذلك اليأس.^{٤٤٩}

ويبدو في تصريح الراوي المشارك لضحى أنه كان متحمساً وطموحاً ونشطاً ودكياً ومتفوقاً في دراساته. ولكن فجأة فقد كل هذه الصفات الإيجابية. فأصبح كسولاً لا يتحمس، وفقد حتى حب القراءة الكثيرة. ولا يطمع في الترقية في وظيفته. وأصبح زميله وصديقه يتهمه بعدم الطموح لأنه يعرف أنه في أيام الثانوية والجامعة لم يكن كذلك: فقد تعيّر. إلا أنه كما أشير آنفاً، إنّ خيانة الراوي لحاتم هي التي سببت هذه التغيرات في شخصيته وسلوكه. وهذه هي الحقيقة التي لم يقلها لضحى في أيامهما الأولى معاً. ويبدو أنه صرّح لها بذلك^{٤٥٠} عندما أصبحا حبيبين.

أمّا بالنسبة ليأس الراوي نتيجة فقدته لضحى فيمكن القول إنه لما تأكّد من خسارته، كتب لحبيته رسالة يقول فيها: "ها أنا مبتور ومبدد. ها أنا الآن أحتاج إليك. ها أنا الآن أنتهي وأحتاج أنفاسك لترد لي، مرة أخرى نسمة الحياة التي وهبتها إياي في البدء."^{٤٥١} ويبدو أنّ يأسه من رجوع ضحى إليه، ومن عودة العلاقة العاطفية بينهما كما كانت، دفعه إلى أن يعتبر نفسه ميتاً عندما يقول: "ها أنا الآن أنتهي". بدأ يكثر عليه الوجوم والهمود والنحول لما طال الزمان بدون رجوع ضحى إليه. وقد بدت هذه العلامات عليه بدرجة أن لاحظ الذين يحيطون به أمثال حاتم وسميرة، شقيقته

^{٤٤٧} بجاء طاهر. ١٩٨٥م. شرق النخيل. ص. ٨٧.

^{٤٤٨} بجاء طاهر. ١٩٨٥م. قالت ضحى. ص. ٧٤.

^{٤٤٩} المصدر نفسه. ص. ٢٥.

^{٤٥٠} المصدر نفسه. ص. ٧٤.

^{٤٥١} المصدر نفسه. ص. ٨٦.

الصغيرة، وسيّد القناوي. يقول له حاتم بقلق ظاهر لما لاحظ ذلك: "ماذا بك؟ هذا النحول وهذا الشرود؟ الناس ترجع من أوروبا سعيدة لا هامة هكذا."^{٤٥٢} فإذا إنّ أثر افتراقه عن محبوبته ضحى، الذي هو السبب في تعيّر الجسمي ويأسه، يبدو جلياً يراه المحيطون به.

ويبدو أنّ يأس حاتم ليس نتيجة إحباط أمل، وإنما نابع عن تأمل الأوضاع والظروف الحياتية الاجتماعية الاقتصادية. ولا يقوده هذا اليأس إلى إبراز الروح العدمية ولا إلى اتخاذ بديل الحزن. معنى هذا، أنّ سائر العناصر للاغتراب لا تظهر عند هذه الشخصية. ويتجلى يأس حاتم عندما لاحظ أنّ الفساد الإداري وأخذ الرشوة في الوزارة انتشر وتآكل في نظام الإدارة، بين أصحاب المناصب ورؤساء الوزارة. وصار فيهم أقوياء، ومن يتساندون. فحتى لو يوجد من يتعامل بالرشوة، مادام أنه قوي، أو أنه يتساند فلا مؤاخذه عليه. ولذلك عندما جاء إليه الراوي يخبره عن نوع من الفساد الإداري التي شاركت حبيبته القديمة فيه، ويسأله ما العمل؟ يقول حاتم بلهجة قاطعة: "لا عمل."^{٤٥٣}

ويخبر حاتم الراوي بأنه يعرف ما يجري في الوزارة، ويعرف تلك الحادثة المزوّرة، رحلة العمال إلى بور سعيد. لكن مع معرفته بما يجري في الوزارة لا يستطيع أن يُحدث أيّ تغيير كما يريد سيد القناوي أن يفعل. ذلك لأنه لاحظ أنّ الحياة إن قطعت رأسها، على عكس الشائع، لا تموت.^{٤٥٤} فحتى لو قطع رأس رئيس الفساد الإداري، سلطان بك، لا تنتظف الوزارة. فسلطان بك هذا عنده أتباع. وحتى عندما لا يكون موجوداً في الوزارة ما دام أنّ أتباعه موجودون فسيستمرّون بالفساد نفسه. وهذا مدى يأس حاتم من تحسن الظروف الاقتصادية الإدارية.

ويلاحظ في الرواية الثالثة أنّ الشخصية التي يبرز عنصر اليأس فيها هي صافية. فقدّ يئسّت من واقعها الذي كانت تعيشه في القرية عندما تأكّدت أنّ حربي لا يتزوجها، كما كانت تتوقع وكما كان أهل القرية يتوقعون. وليس هذا فحسب، بل جاء بمن يطلب يدها في الزواج وتوسط في ذلك. كرهته في تلك اللحظة، وصمّمت على أخذ ثأرها عليه

^{٤٥٢} بماء طاهر. ١٩٨٥م. قالت ضحى. ص. ٩١.

^{٤٥٣} المصدر نفسه. ص. ١٢٠.

^{٤٥٤} المصدر نفسه. ص. ١٢١.

بطريقة أو بأخرى. وربما هذا هو الدافع في قولها: "أنا موافقة يا والدي.. سأتزوج القنصل وسأعطيهِ ولدا."^{٤٥٥} قالت ذلك بوجه متضرج رافعة رأسها وكانت عيناها نصف وجهها وكان فيهما بريق غريب. كل هذا يؤكد استسلامها عن الفوز بحب حربي وبالتالي الزواج منه. ومن ذلك أنها بعد وفاة البك تعمق ياسها بحيث أصبح حربي عدوّها، حتى قبيل وفاتها. وأصبحت "لم تعد تكثر من الاستحمام كما كانت تفعل في السراي أيام كانت تستحم في اليوم الواحد مرتين؟..."^{٤٥٦} ربما كان ذلك بسبب الحزن أو بسبب الكسل، والله أعلم.

اكتشف الباحث في الرواية الرابعة أنّ الراوي المشارك الصحفي جاء يأسه لما أصبح مستشاراً لا يستشيرهُ أحد في أيام سلطة السادات. وذلك بعد أن كان يرتقي في الصحيفة كالصاروخ حتى وصل إلى منصب نائب التحرير في أيام عبد الناصر.^{٤٥٧} لما رأى ذلك يئس من أنّ الأمور تتحسن فيما بعد، وقيل واقعه. ويتعلق هذا بإحباط أمله في وظيفته. كما أنّ هذه الحادثة من الأسباب التي أجبرته ليلجأ إلى الغربة الاختيارية في أوروبا في المدينة التي لم تحدد باسم، وإنما أرمزت بحرف (ن)^{٤٥٨} فقط. وعندما وصل يأسه من الحياة ما وصل، يقول في مونولوج يحدّث نفسه: "وما معنى أن استمر في هذه الحياة الكذبة؟"^{٤٥٩} فهو يرى أنه أصبح يعيش حياة يكتر الكذب فيها. فقد أصبحت الكلمات التي يكتبونها في المقالات وينشرونها ما عندها معانٍ خارج الصحيفة والجريدة. فهي كلمات للكتابة لا للحياة. ومما لا شك فيه أنّ هذا لا يجوز للإنسان الذي يملك ضميراً للإنسانية.

وقد أشير إلى مسألة إحباط أمل الراوي الصحفي في حبه لبريجيت. وبالنسبة لذلك، قد اكتشف الباحث أنه يئس من تحسّن الأمور بالنسبة لحياته العاطفية، أو رجوع الأحوال كما كانت، وقبل فصل كليهما من وظيفته. وبالتالي أجبرتهما الظروف الحياتية الاجتماعية السياسية على ترك المدينة المغتربة. ويقول الراوي الصحفي في هذا الصدد: "ولم يكن يعنيني

^{٤٥٥} بماء طاهر. ١٩٩١م. خالتي صفية والدير. ص. ٥٥.

^{٤٥٦} المصدر نفسه. ص. ٧٨.

^{٤٥٧} بماء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ٢٣.

^{٤٥٨} المصدر نفسه. ص. ٥.

^{٤٥٩} المصدر نفسه. ص. ٤٣.

كثيراً أن أبقى في المدينة شهراً آخر.^{٤٦٠} ورجعت بريجيت إلى النمسا.

كان الراوي منكسراً عند الوداع؛ لأنه تأكّد على أنّ النهاية جاءت حتماً. فلزم الصمت وقال مستمراً بالسرد: "لم يعد عندي شيء أقوله. لم أعد أنا. رأيت نفسي، مثلها، منذ مدة أتلاشى. لم تغب عني أنا أيضاً الفرحة وحدها، بل غاب حتى الحزن والألم.^{٤٦١} لكنّ في الطريق إلى المطار، حاولت بريجيت أن تصنع النهاية لحياتهما، مادام أنّها أتت إلى وحاولت أن تقتل نفسها والراوي معا في وقت واحد. فقد سألته عن أين السلام الذي كانا يبحثان عنه طول العمر؟ فأجاب الراوي دون وعي: "أن ننام، أن نلحم."^{٤٦٢} فسوّرت كلامه بالانتحار. فنزعت حزام الأمان لمقعدها وهي تكرر: أن ننام، وأن نموت:

ثم مدت يدها، ثم مالت بجسمها كله نحو ي وراحت تدفع مقود السيارة إلى حافة الطريق المرتفع وأنا أصرخ: لا! لا! لا يا بريجيت.. ليس الآن.. ليس هكذا.. لا! وكانت هي تتابع بافتناع كامل — لماذا لا؟ لماذا يا صديقي؟ هل تستمتع بالفعل بهذه الدنيا الكلبة؟ ما الذي تريده منها؟ وكانت تضغط بقدمها على قدمي وأنا أحاول أن أدفعها بعيدا عني بكتفي أحاول أن أدفعها بعيدا بجسمي وكانت السيارة تندفع إلى أن وصلت بالفعل إلى طرف الطريق فجذبت فرامل اليد قبل أن تنزلق من الحافة.^{٤٦٣}

ولا شك أنّ مصدر ردّ فعلها هذا هو مدى يأسها من الواقع المعيش. فقد رأث فساوة المجتمع وبشاعته أولاً في بلدها النمسا، وثانياً في المدينة المغتربة. ومن ثمّ إنّ موقفها هنا إشارة صريحة إلى استسلام تامّ "يعبر بدقة عن عالم نفسي فقدّ

^{٤٦٠} بحاء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ٢٤٤.

^{٤٦١} المصدر نفسه. ص. ٢٤٨.

^{٤٦٢} المصدر نفسه. ص. ٢٤٨.

^{٤٦٣} المصدر نفسه. ص. ٢٤٩.

التماسك والترابط في مقابل عالم خارجي شديد الصلابة والتحديد.^{٤٦٤}

ويست بريجيت للمرة الأولى في بلدتها النمسا. وذلك لما لاحظت حالة زوجها ألبرت بعد فقدان طفلهما. أحبط أملها بعد تلك المأساة وجعلها تأثيرها تفقد ألبرت كذلك. فقد صار ما صار بعد المأساة وذهب بعيداً دون رجعة، كما فقد مبادئه التي كان يعيش على أساسها في الغربية. ولما تخرّجت في الجامعة قرّرت الإتيان إلى تلك المدينة (ن). وقد بلغ بأسها من الحياة المحيطة بها ذروته بدرجة أن وجدها الباحث تقول للراوي: "أنا لا أقرأ صحفاً وليس في بيتي راديو ولا تليفزيون. أنا لا أريد أن أعرف شيئاً عن هذا العالم المجنون الذي لا أفهمه. ألم تكن أنت الذي قلت لي في أول لقاء بيننا إن هذه الحياة كذبة؟"^{٤٦٥}

ويبدو أن بريجيت قطعت علاقتها مع العالم لسبب بأسها. لذلك لا تقرأ، ولا تفتح راديو ولا تشغل تليفزيون. وذلك لأنها تعتبر العالم مجنوناً لا تفهم ما يجري فيه. ويست للمرة الثانية لما شاهدت ما حدث لحبيبها الراوي ولها في آن واحد. وقبل أن يصرح الراوي للقارئ أنه لا يهمه أن يبقى في المدينة المعتربة شهراً آخر، قد صرخت بريجيت بدورها تقول: "هذا عالم ماسياس وسمو الأمير! لا فائدة!"^{٤٦٦} وقد علّمتها هذه التجربة أن تؤمن بأنّ العالم لا يتغيّر. تعيش في تلك المدينة الظروف السياسية الاجتماعية التي عاشتها في النمسا والتي عاشها ألبرت في غينيا الاستوائية التي يحكمها ماسياس الطاغية. ومن هنا قررت العودة إلى النمسا وهي تعاني من فقد الراوي حبيبها والطفل المتخيل الذي اشتاقت إلى إنجابه معه.^{٤٦٧}

ويست إبراهيم المحلاوي عندما حبط أمله في حب شادية. وذلك لما وصل إليه خبر زواجها من صراف الصحيفة: عم عبد اللطيف. وأنجبت له طفلاً بعد سنة كاملة.^{٤٦٨} وهذا اليأس هو الدافع في قراره على أن يبقى عازباً طول عمره؛ لأنه

^{٤٦٤} بجاء طاهر. ١٩٩١م. خالتي صفية والدير. ص. ٢٢.

^{٤٦٥} بجاء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ١٢٢.

^{٤٦٦} المصدر نفسه. ص. ٢٤٣.

^{٤٦٧} المصدر نفسه. ص. ١٧٢-١٧٣.

^{٤٦٨} المصدر نفسه. ص. ٣٥.

فقد حببته الحقيقية وفقد معها حبه الحقيقي وبالتالي فقد رغبته في الارتباط بأي امرأة وبالزواج بها. وقد أشار إبراهيم إلى أنّ الذنب في فقدان ذلك الحب هو ذنبه نفسه، وذلك عندما كتب لحبيبته أيام أن كان معتقلاً: "إن أردت انتظاري فهي حرة في أن تسلي نفسها بالخروج مع من تشاء من الرجال.."^{٤٦٩}

يبدو أنّ الحملة السّابقة هي التي دفعت شادية إلى ترك إبراهيم المخلاّوي نهائياً. لكنّ إبراهيم يتشكك عندما يخبر الراوي الصحفي عن هذه الحادثة: هل أراد حقاً أن يحرّر شادية من الارتباط بإنسان مسجون لا مستقبل له، أو كان هناك إمكانية وجود سبب آخر دفعه إلى أن يقول تلك العبارة المشؤومة. هذا محتمل ما دام أنّ الإنسان يتغيّر في السجن. ويقول في هذا الصدد: "هل كنت أريد بالفعل أن أحررها من الارتباط بشخص لا مستقبل له؟ ربما. وربما كان هناك سبب آخر، يتغير الإنسان في السجن. العواطف المشبوبة في خارجه تنطفئ داخل أسواره."^{٤٧٠}

ويؤس إبراهيم المخلاّوي للمرة الثانية بعد أن حبط أمله في نشر أخبار المختطفين اللبنانيين والمضطهدين منهم الذين تخطفهم جنود إسرائيل المسلحة وتعذبهم. حاول جاهداً أن يجد من ينشر تلك الأخبار التي وجدها من مصادر محايدة إلا إنه لم يجد. فاستسلم ويؤس وترك الموضوع في حالة قلق، وإحباط أمل. وكان دافعه في نشر تلك الأخبار هو الرغبة الملحة في نشر الحقيقة وراء جرائم حرية ترتكبها إسرائيل ضد اللبنانيين.^{٤٧١} ولعل لو عرف العالم الحقيقة، لساعد اللبنانيين في منع إسرائيل تنفيذ المذبحة التي دبرتها ونفذتها.

وجدير بالذكر هنا أنّ الباحث لم يعثر على مقطع سردي في الرواية الخامسة يصحّ الاستشهاد به في كون الباشكاتب في حالة استسلام ويأس. فمع أنه حبطت آماله في الظروف التي تحيط بحفيده سالم وفوزية وابنه شعبان لكنه لم ييأس. إلا إنّ هناك مقطع سردي يشير إلى نوع من اليأس من جرسون المقهى الذي تعود الباشكاتب أن يذهب إليه يسمى: جابر. والذي يدعو الشخصية إلى القول بما قالت هو أنّ جابر اقترح مقالاً يعرفه لمساعدة الباشكاتب في ترميم عمارته

^{٤٦٩} بماء طاهر. م٢٠٠١. الحب في المنفى. ص. ٣٦.

^{٤٧٠} المصدر نفسه. ص. ٣٦.

^{٤٧١} المصدر نفسه. ص. ٧٣-٧٤.

عندما ارتجت في وسط الليل.^{٤٧٢}

أخبر الباشكاتب جابر في حوار خارجي دار بينهما في المقهى: "سمسارك ذبحني والمقاول الذي جاء به ليرمم البيت أكمل المهمة. وعد بأن ينهي العمل في شهرين فاستمر أكثر من سنتين. ولكن ماذا أفعل؟ ربنا يسامحك!"^{٤٧٣} فردّ عليه مخاطبه متظاهرا بالأسى: "والله يا حضرة الباشكاتب أنا أردت أن أخدم ولكن ما العمل؟ أنت رجل طيب والناس في هذه الدنيا إما آكل أو مأكول."^{٤٧٤}

يلمّح الاقتباس السابق أنّ جابر لا يتأسّف لما حدث للباشكاتب. وليس هذا فحسب، بل ولا يستبعد أنه يتشكك فيما يخبره عنه زبونه. ذلك لأنّ الراوي العليم بكل شيء لاحظ في صوته وفي ملامح وجهه أنه يتظاهر بالأسى، ومن ثمّ إنه لا يتعاطف مع توفيق في خسارته مع أنه هو الذي قدّم إليه السمسار وقدّم السمسار المقاول. ويبدو في جانب آخر أنّ ما قاله نابع من يأسه عن الناس. فالناس، كما يرى جابر، صنفان: "إما آكل أو مأكول." إما المضطهد أو المضطهد.

أمّا من جانب فوزية فقد اكتُشف أنها يفتت من الظروف الاجتماعية الاقتصادية التي تحيط بها. وهذا الذي وُلد بعض التصرفات منها. ومنها مثلاً السرعة في أخذ نصيبها عندما باع أبوها جانبا من البيت. تقول فوزية لأخيها سالم في حرص ينم عن عزمها على تغيير تصرفاتها: "أنها لم توقع على التوكيل لأنها تريد أن تعرف رأسها من رجلها، ويكفي ما فعله سالم مشكورا من أجلها حتى الآن. إن كان والدها قد قبض مبلغا من المال فهي تريد أن تأخذ نصيبها منه وأن تعرف كيف ستسير الأمور بعد ذلك."^{٤٧٥} وسجلت شقة استأجرتها بعد القبض على الأموال باسمها. وهذا التصرف إشارة صريحة إلى أنها لا تريد أن تكون تحت رحمة فراج أو أي إنسان آخر في المستقبل، كما أنّ عليها أن تحمي

^{٤٧٢} بماء طاهر. ٢٠٠١م. نقطة النور. ص. ٢١٥.

^{٤٧٣} المصدر نفسه. ص. ١٨٤.

^{٤٧٤} المصدر نفسه. ص. ١٨٥.

^{٤٧٥} المصدر نفسه. ص. ٢٣٠.

مستقبلها ومستقبل طفلها سلوم. يقول الراوي الغائب في هذا الصدد: "عليها الآن أن تحمي مستقبلها ومستقبل سلوم.

لم تأت الإعارة التي انتظرها فراج ولا تظن أنها ستأتي وهي لا تريد أن تكون تحت رحمته أو تحت رحمة أي مخلوق." ^{٤٧٦}

والملاحظ أنّ يأس فوزية الذي سبّب هذه التصرفات ناتج من إحباط أمل زوجها الذي أشير إليه، والذي يقول عنه

الباشكاتب أنه يحاول أن يخفف عنها الشعور بالهزيمة في حياتها الزوجية. وحتى الإعارة التي كان زوجها يلحّم بها بعد أن

غاب عنها طويلاً لم تأت. تقول في صوت مليء بالأسف: "لم تأت الإعارة التي انتظرها فراج ولا تظن أنها

ستأتي... " ^{٤٧٧}

ويؤسّ سالم من محيطه البيئي بعد معاناة كثيرة عانى منها نفسياً وجسدياً. يتمثل يأسه في حبه المخدول. فقد فقد حبه

للبني بسبب الحالة التي تأتته تارة، والتي إن جاءت يفقد وعيه ويصدر كلاماً قبيحاً وشتائم لاذعة وما إلى ذلك. عادت

إليه هذه الحالة عندما كان وسط ممارسة الحب بينه وبين حبيبته. جعلت وجهه يفقد كل جماله بلا سابق إنذار "وهو

يهدر بعبارات لم تفهمها على الفور إلى أن فهمت أنه يشتمها ويشتم أباه وأمه وداة سنية وعم حسن بعبارات

فاحشة، ويقول كلاماً غريباً آخر عن أبيه وعن أخيه لم تفهمه أيضاً وقد أصابها الخرس والشلل. كان ينظر نحوها بكرهية

وتقزز وهي تنظر إليه ضارعة لا تجسر حتى أن تطلب منه أن يشتم بصوت خافت." ^{٤٧٨} ولم يعد كما كان قبل الافتراق.

أي لم يعد توازنه النفسي كما كان من قبل. ويعبر هذا عن شدة وطأة أثر الافتراق في قلبه. ولذا استسلم من الاستمرار

بالدراسة الجامعية بعد جبوط آماله في الحب. ^{٤٧٩}

وولدت هذه التجربة فيه تصرفاً كان يزاوله قبل الحادثة، وهو كثرة الصمت. ازداد كثرة صمته الذي تعودت عليه

الشخصيات التي تحيط به. لكن الملاحظ هنا هو أنه أكثر في ذلك الصمت والانطواء في نفسه. وإضافة إلى ذلك كانت

^{٤٧٦} بماء طاهر. ٢٠٠١م. نقطة النور. ص. ٢٣٠.

^{٤٧٧} المصدر نفسه. والصفحة نفسها.

^{٤٧٨} المصدر نفسه. ص. ١٣٩.

^{٤٧٩} المصدر نفسه. ص. ١٧٥.

هناك نظرة منطقتة في عينيه وبسمة ثابتة على شفثته.^{٤٨٠} وأنتج يأسه موقفاً آخر يتجلّى في طلبه وظيفة. وساعده في ذلك جدّه الباشكاتب في الحصول على وظيفة في مطعم أمريكي قريباً من حيّهم، حي السيّدة زينب. إنّ هذه التصرفات لا شك ناجمة عن يأسه من الحب الذي أماته المؤلّف وقبّره.

والظروف الحياتيّة الاجتماعيّة التي دفعت لبني إلى اليأس لم تكن تختلف كثيراً عن الظروف التي دفعت سالم إلى اليأس. فهي الأخرى أصيبت بمرض نفسي جسمي يتمثل في الانهيار العصبي وعودت في مصحة في روما.^{٤٨١} ويمكن القول إنّ مسبّب هذا المرض هو شدة وطأة الافتراق عن الحبيب. فبعد أن عادت حالة سالم وهو غارق في تجربة ممارسة الحب معها، انهارت علاقتها عندئذ. ولم تكن الحادثة واضحة عند كليهما في بداية الأمر؛ وإنما كانت غامضة، يغشاها الضباب. يقول الراوي العليم بكل شيء بضمير الغائب مسترجعاً الحادثة بعد حدوثها بدقائق:

ظلت في مكائها على الأرض منكشنة على نفسها وهو يميل عليها بوجهه الذي فقد كل جماله فجأة وهو يهدر بعبارات لم تفهما على الفور إلى أن فهمت أنه يشتمها ويشتم أباه وأمه وداة سنية وعم حسن بعبارات فاحشة، ويقول كلاماً غريباً آخر عن أبيه وعن أخته لم تفهمه أيضاً وقد أصابها الخرس والشلل. كان ينظر نحوها بكرهية وتقزز وهي تنظر إليه ضارعة لا تجسر حتى أن تطلب منه أن يشتم بصوت خافت.^{٤٨٢}

أثرت هذه الحادثة عليها تأثيراً لا يغيب عن بال القارئ. فقد أحببت هذا الحبيب حباً صادقاً كدست آمالاً كثيرة فيه. وقبلته بعد أن صممت على كره الرجال جميعاً بسبب حادثة الاعتصاب التي دبرها ونقذها أستاذ حمام ضدها في بيت أبيها أثناء دراساته الإضافية لها. وكان سالم شفاءً لوسواسها وخوفها وعدم الثقة بالنفس التي تعاني منها. سببت هذه الأسباب أن يؤثّر الافتراق إلى حد جلب المرض المذكور أنفاً. ولذا يمست من حبها هي الأخرى، ذلك الحب الذي قتله

^{٤٨٠} بهاء طاهر. ٢٠٠١م. نقطة النور. ص. ١٧٥.

^{٤٨١} المصدر نفسه. ص. ١٩٧.

^{٤٨٢} المصدر نفسه. ص. ١٣٩.

المؤلف ودفنه.^{٤٨٣} كما تركت دراسة القانون في روما قبل أن تترك الدّراسة كلها وترجع إلى مصر. ومن ذلك تركت السياسة، وتركت المجموعة التي كانت عضواً فيها قبل القبض عليها في فجر يوم مظاهرة الطلاب في الجامعة.^{٤٨٤}

ومن المغتربين في الرّواية السادسة محمود عزمي كما أشير سابقاً. وفي المرة الأولى التي حبط أمله للالتحاق بمدرسة الحقوق لأنّ أباه أفلس في تجارته، اتضح أنه يئس من تلك الواقعة. لكن ساعده والده بأن ألحقه بالشرطة؛^{٤٨٥} عسى أن يتغلّب على يأسه. ويئس في المرّة الثانية لما صيرّ المؤلّف حبه حباً مخذولاً، وذلك عندما يجعل نعمة السمراء تحرب من البيت ذات يوم فجأة. وبحث عنها محمود في كل مكان يتوقع وجودها ولم يعثر عليها أو يجد دليلاً يدلّه إليها.^{٤٨٦} وهذا هو الدافع الذي يدفعه إلى اتخاذ قراراً يتمثل في أنه لا يجب امرأة أخرى أبداً وألا يتزوج أبداً. لكن لم يصمد هذا القرار وهذا العهد طويلاً،^{٤٨٧} فقد تزوج بكاثرين الأيرلندية. وربما تربطه علاقة أو علاقات بأخريات لكن ليس حبا حقيقياً؛ فقد تلاشت تلك الرغبة في الارتباط بامرأة أخرى مع هروب نعمة السمراء.

ويئس مأمور الواحة للمرّة الثالثة عندما رأى فيونا تموت بالفعل. والسبب الذي يدفعه إلى ذلك هو أنه وقع في حبّها بدون وعيه. لكنّ زوجته كاثرين لاحظت ذلك. ولاحظت محاولاته في إخفاء ذلك الحب الذي يعرف في أعماق قلبه أنه سيفشل ويخذل. وتقول كاثرين في صدد ذلك:

كدت أشفق عليه لحظتها كما أشفق عليه وهو يتقلب في الفراش مؤرقاً طول الليل
ثم تطارده بعدها الكوابيس التي يصحو منها في فزع. لكنه مع ذلك غريب عني
تماماً الآن. كأننا لم نكن زوجين في أي وقت. من حسن الحظ أن فيونا لا تشعر
بهذا كله. لا يمكن لبراءتها أن تتصور أن يقع زوج أختها في غرامها. خيالها لا

^{٤٨٣} بجاء طاهر. ٢٠٠١م. نقطة النور. ص. ١٣٧.

^{٤٨٤} المصدر نفسه. ص. ٢٠٠.

^{٤٨٥} بجاء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ١٦.

^{٤٨٦} المصدر نفسه. ص. ٨٥.

^{٤٨٧} المصدر نفسه. ص. ١٨.

يستطيع أن يستوعب هذه الفكرة. حتى لو قلت لها إن كل ما بيني وبين محمود قد

انتهى. ٤٨٨

ويلاحظ أن تصرفاته التي لاحظتها زوجته ما هي إلا انفعالات تنم عن يأسه من الحب الذي جاءه في سيوة. ومما يزيد عمق يأسه والضغط الداخلي النفسي في شخصيته ما يقوله في مونولوج وتقنية انفصال السارد عن ذات شخصية الراوي يعبران على مدى اليأس الذي اكتنفه جرّاء وقوعه في الحب الميؤوس الفاشل وشدة حالة المحبوبة الجديدة: "ثم تأتي سعلة خافتة من بعيد فيملاً الغرفة برق مفاجئ، يسترخي جسدي المشدود ويحل بي سلام غريب. يأس مريح واستسلام نهائي: لا مهرب فلا تحاول." ٤٨٩ ولذا أمل محمود كل الأمل أن تصنع معجزة وتتغلب على مرضها فتشفى وتحيي. ٤٩٠ لكن بدي ذلك كله حلاً بعيد المنال. فلم تنفع الأعشاب التي أرسل إليها الشيخ يحي كثيراً، ولا المداوات التي واطبت عليها زبيدة، واحدة من أهل السيوة.

ونتيجة هذا اليأس يذهب محمود ليهدم معبد أم عبيدة؛ لأنه يعتبر ذلك المعبد بداية كل المصائب التي تحف حاضره، وله علاقة بطريقة أو بأخرى بتدهور صحة فيونا، ذلك لأنه هو الذي أشغل شقيقتها كاترين عن الاعتناء بها اعتناء يليق بمن في حالتها. ٤٩١ ويقول محمود عندما يرى فيونا تفقد الوعي: "لم أرفع عيني عن الوجه النائم. العينان مغمضتان لكنهما محفورتان في ذهني. قلت: الشمس تدفئ من جديد فعلاً.. وستستطيع زبيدة.. أقصد أدوية الشيخ يحي.. لكنني لن أنتظر." ٤٩٢ ويقول مخاطباً نفسه في مونولوج وهو في طريقه إلى المعبد: "ما العمل يا شيخ وكل الحكمة لا تفيد في أن تهدي الراحة إلى القلب؟ الغلطة في الحياة بالفعل، أنا لم أختَر حياتي. لم أختَر أن آتي إلى هذه الواحة ولا اخترت أن

٤٨٨ بقاء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ٢٤٧.

٤٨٩ المصدر نفسه. ص. ٢٧١.

٤٩٠ المصدر نفسه. ص. ٢٦٢، ٢٧١، ٢٨٤.

٤٩١ المصدر نفسه. ص. ٢٨٢، ٢٨٧.

٤٩٢ المصدر نفسه. ص. ٢٨٢.

تدخل مليكة بيتي ولا أن تأتي فيونا إلى قلب الصحراء.^{٤٩٣}

ويئست كاثرين من زواجها بمايكل الذي تزوج بها لكي يعدّب نفسه.^{٤٩٤} حاولت أن تجعل زواجها يعمل بطريقة أو بأخرى لكنها فشلت وحبطت آمالها في ذلك. ولذا يئست من تحسّن أحوال الزواج والعلاقات الزوجية بينهما. فبادلته قسوة بقسوة وكرها بكره. وتقول في هذا الصدد: "كنت أقوم بكل هدوء وأخذ كتاباً من مكتبته وأشرع في تمزيقه. يهجم عليّ ليضربني ويمعني فأخذ مزيداً من كتبه أضربه ببعضها وأمزق منها ما أستطيع. كنا نقتل أحداً الآخر في تلك المعارك بالكتب والتضارب في معارك أخرى. كان الأمر سينتهي فعلاً بالجريمة أو فضيحة... لو لم يقتله في النهاية بخله وعناقه.^{٤٩٥} فقد مرض مرضاً غريباً ومات نتيجة بخله على نفسه. ويلاحظ أن تغير تصرفاتها بعد أن صبرت كثيراً على معاملة زوجها تجاهها تؤكد يأسها من تحسّن العلاقة الزوجية بينهما. وهذا اليأس هو الذي دفعها إلى أن تتخذ قرار الخروج من أيرلند وتغترب اختياريّاً في مصر.^{٤٩٦}

ويئست مليكة من محاولتها لطلب المصادقة من كاثرين ومحمود عندما حاولت استخدام التماثيل ولغة الجسد لإشعار كاثرين برغبتها في المصادقة. ساءت فهمها وظنّت أنّها تريد علاقة جنسية بينهما، فرفضتها وضربتها بجريدة النخيل. رجع محمود وقتئذ من مكتبته من مركز الشرطة. ولما أدرك هذا الموقف ظن أنّ مليكة جاءت لتهاجم على حريمه. فزاد الأمر سوءاً وساعد زوجه في ضربها وطردها من البيت. واكتشفت عن غطاؤها ولثامها نتيجة هذا المشهد. فتعرف عليها أفراد المجتمع.

وقد تجرأت مليكة على الخروج من البيت وهي في حالة يسميها مجتمعها: الغولة. وكان ممنوع نھايا أن تخرج الغولة قبل انتهاء مدة الحداد. فلذا صمّم المجتمع على قتلها لإزالة الدنس والمصائب التي تجلبها. ولذا عندما وصلت إلى بيتها

^{٤٩٣} بماء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ٢٨٤.

^{٤٩٤} المصدر نفسه. ص. ٢٦.

^{٤٩٥} المصدر نفسه. ص. ٢٧.

^{٤٩٦} المصدر نفسه. ص. ٢٨.

رفضت أن تكلم أي شخص. وبقيت في غرفتها وحيدة تفكر في مدى قساوة العالم إلى أن دفعتها حالة اليأس إلى الانتحار إن صحَّ هذا التفسير. يقول الذين أخبروا الشيخ يحيى خالها عن نعيها: "أدارت السكين نحوها وأغمدته في صدرها وهي تلعن كل الرجال والنساء ونافورة الدم تندفع منها نحو أمها."^{٤٩٧} فقد أهدت حياتها بنفسها لشدة اليأس من الظروف الاجتماعية القاسية التي تعيش فيها.

وقد يؤس الشيخ يحيى للمرة الأولى نتيجة الظروف الاجتماعية التي تحيط بمجتمعه الذي قسّم الشعب إلى عشيرتين: الشرقيين والغربيين. الأمر الذي أشاع ضغينة بينهما وولّد حروباً داخلية طويلة مستمرة بينهما. وحبط أمله في التصالح وانتهاء الحروب حين أقسم مع عشيرته بأن يحاربوا حتى يقضوا على عشيرة الشرقيين أو تقضي عليهم. يؤس من أنّ حالة الحروب الأهلية بين العشيرتين تتحسن. وذلك عندما رأى عدم الالتزام بالقسم الذي تحالف عليه هو وأفراد عشيرته، ولم تردّ الذين فرّوا كل المحاولات لردّهم ولا شتائم النساء وإهانتهن على من فر من ميدان القتال. وتعجبت عشيرة الشرقيين من بسالة الشيخ يحيى، ساحتته فتركته؛ ولم تقتله مع القدرة على ذلك. يقول الشيخ يحيى: "أبرز من مكمني وأطلق النار مع كل دقة طبله على صفوف الشرقيين المترابطة. غير أن رصاصاتهم كانت تطيش بعيداً عني في كل مرة. كانوا يستطيعون قتلي بكل سهولة لكنهم لم يفعلوها."^{٤٩٨}

يلاحظ أنّ استمراره بالقتل مع إدبار عشيرته تصرّف قوي يصوّر بسالته ويؤكد بأسه من تحسن العلاقة بين العشيرتين. كما يبرز هذا رغبة الشيخ القوية في الوفاء بالعهد. ونتيجة ذلك اليأس ترك أسرته وأهله وعشيرته واختفى في الصحراء لمدة طويلة. يقول الشيخ: "عرضوا أن أبقى معهم وأعيش وسط الشرقيين مكرماً، لكنني ركبت حماري ولم أرجع إلى داري ولا إلى قومي، بل تقدمت نحو الصحراء المتاهة عازماً ألا أعود."^{٤٩٩} ويبدو أنّ مردّد فعل هذه الشخصية هو رغبة ملحة في السلام والتوازن والعدالة الاجتماعية.

^{٤٩٧} بقاء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ١٨٥.

^{٤٩٨} المصدر نفسه. ص. ١٨٢.

^{٤٩٩} المصدر نفسه. ص. ١٨٢.

ويُفسر الشيخ العجوز للمرة الثانية نتيجة للظروف الحيّاتية الاجتماعية التي تحيط بمليكة. كان يشعر بالغضب من نفسه لأنه لم يستطع أن يحميها من ظلم الأطفال وغشهم أثناء اللعب وهي طفلة. ولم يستطع حمايتها عندما فرض المجتمع عليها زوجاً شيخاً في مثل سن جدّها أو أكثر. وازداد يأسره عمقاً عندما وصل إلى بيت أمها وأخبر عن وفاتها.^{٥٠٠} حلّت به خيبة الأمل فور سماعه ذلك. واعتقد أنّ المجتمع كلّهُ ساعد في موتها انتحاراً أو قتلاً. ودفعته هذه المأساة إلى الانزعال عن مجتمعه البدائي. وأقسم على ألا يخرج من عزلته وخلوته إلى أن تأتيه المنية لأنه ما رأى في ذلك المجتمع من يستحق المصاحبة. ويقول في هذا الصدد: "الآن يئست من بلدتكم... سأهرك الآن أيتها الواحة لا لكي أجد نفسي مرة أخرى وإنما لكي أودّعها."^{٥٠١} استمرّ يعيش في حديقته منعزلاً عن مجتمعه حتى نهاية الرّواية، وينوي ذلك حتى ينتقل إلى جوار ربه، كل هذا لأنه يئس من ذلك المجتمع.

المطلب الثالث: الرّوح العدمية

يُقصد بهذا العنصر للاغتراب ظاهرة تجعل الحزن والشفافية والمساوية والشعور باللاجدوى الحياة ينتشر في كل خلايا بعض شخصيات بهاء طاهر لاسيما الرئيسة والأبطال فيها. يعثر المتلقي على هذا الروح في أفكار هذه الشخصيات وتصوراتها وانفعالاتها وسلوكياتها وتصرفاتها وتعاملاتها. إلا إنّ هذا الشعور باللاجدوى ليس عميقاً بحدّ يجعل الشخصية تصبح أداة لبث الأفكار الفلسفية.^{٥٠٢} ويلاحظ كثرة ورود عبارة "لا فائدة" و"لا فائدة مني". الأمر الذي يؤكّد حضور الروح العدمية في الشخصيات التي تصدر عنها هذه العبارات. وقد أبرزت نتيجة التحليل أنّ الرّوايات التي تبرز فيها هذه الظاهرة هي: الرّواية الأولى، والثانية، والرابعة، والخامسة، والسادسة. وقد اختفت في الرّواية الثالثة.

وقد شاع الرّوح العدمية بدايةً في الرّواية الأولى. وذلك في أقوال الراوي المشارك وأفكاره وأفعاله وانفعالاته. وقد عثر

^{٥٠٠} بهاء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ١٨٥.

^{٥٠١} المصدر نفسه. ص. ١٨٥.

^{٥٠٢} شاكر عبد الحميد. ١٩٩٣م. "الموت والحلم في عالم بهاء طاهر". ص. ٢٠٢.

الباحث على مقاطع سردية تشير إلى ذلك.^{٥٠٣} ومعظمها تخص الراوي البطل، في حين أنّ بعضها تخصّ بعض الشخصيات الثانويّة. وهذا الروح ظاهرة تتميز بها في معظم الأحياء الشخصيات المغتربة، مثل الراوي في الرواية الأولى. وهي حالة ناجحة وناجحة عن إحباطات آمال وأس الشخصيات من محيطها البيئي ومن الظروف الحياتية الاجتماعية والسياسية التي تحيط بها. وعلى هذا الأساس يرى الراوي في الرواية الأولى اللاجدوى حياته وآماله التي حبطت وأحلامه التي لم تتحقق. وتشاركه شقيقته هذا التفكير والشعور. لأنّ لها علاقة عاطفية مع إحدى الشخصيتين اللتين وقعت المأساة التي سببت إحباط آماله وآمال أسرتهما، وهو حسين. إذ إنها هي محبوبه حسين المقتول وخطيبته.^{٥٠٤}

ويرى هذا الراوي الذي لم يسم أنّ الناس لو يموتون معا في وقت واحد لما وجد من يبكي على أحد أو من يحسد على أحد لأنه، "الأنا"، حي وغيره، "الأخر"، ميت. ولكن الأفضل ألا ينبت زرع البشر. فهذه الطريقة لا يكون شقاء.^{٥٠٥}

ويؤكّد هذا مدى تفكير هذه الشخصية في اللاجدوى الحياة عندها. ومن ذلك يقول مخاطبا زميل غرفته سمير في طريقتها إلى ميدان التحرير: "وعن نفسي فأنا أعرف أنه لا فائدة مني".^{٥٠٦} كما تسأله شقيقته فريدة خطيبة حسين المقتول ذات يوم كان الراوي المشارك في الصعيد يقضي عطلة الصيف: "...قل لي، لماذا نعيش ما دمنا سنموت في النهاية؟"^{٥٠٧}

ويقول مخاطباً حسين القاتل وهما في الطريق إلى محطة القطار لمصاحبة الراوي في سفره للرجوع إلى القاهرة، كانا في عربة حصان، عندما توقف الحصان في الطريق، كأنه لا يريد أن يوصلهما إلى المحطة: "...وعلى العموم لو عرف أن بقائي كعدمه لما اهتم لسفري."^{٥٠٨} وربما يبادر إلى ذهن القارئ تعجب قليل وذلك في حدوث محتوى هذا المقتبس قبل مقتل حسين. فهذا إشارة واضحة إلى أنّ الراوي بدأ يفكر في اللاجدوى الحياة قبل وقوع المأساة. ولا يستبعد أن يكون مصدر

^{٥٠٣} بجاء طاهر. ١٩٨٥م. شرق النخيل. ص. ١٤، ٥٦، ٦٩، ٧٥، ١١٣.

^{٥٠٤} شاكر عبد الحميد. ١٩٩١م. "الموت والحلم في عالم بحار طاهر". ٢٠١.

^{٥٠٥} بجاء طاهر. ١٩٨٥م. شرق النخيل. ص. ٦٩.

^{٥٠٦} المصدر نفسه. ص. ٧٥.

^{٥٠٧} المصدر نفسه. ص. ١٤.

^{٥٠٨} المصدر نفسه. ص. ٥٦.

هذا الموقف هو وقوع المشكلات والشجار بين عمه ووالده في جانب، وبين عمه وأولاد الحاج صادق في جانب آخر. ويظهر هذا الروح في الرواية الثانية عند الراوي المشارك أيضاً. وعندما وقع في حب ضحى تيقن أن حبه ليس له مستقبلاً. فهو شاب في الثلاثين وقع في غرام امرأة متزوجة في طبقة اجتماعية متفوقة: الأرستقراطية. والشيء الوحيد الذي يوحدهما وقيدهما هو المكتب الذي يعملان فيه. وعندما بدأ ذلك الحب الميؤوس منه يتنامى، بدأ يفكر أيضاً في اللاجدوى حبه، ولماذا تحب نفسه هذه الجميلة المتزوجة، التي يكون الحصول عليها شبه مستحيل. فاكشف أن لا بد أن يكون السبب هو أنه لا يعرف نفسه. وإن لم يفهم نفسه فالأفضل أن يكف في التفكير في أي شيء. يقول الراوي: "أنا لا أفهم نفسي ويحسن أن أكف عن التفكير في أي شيء."^{٥٠٩} فيبدو أن ضغوطات الحب المخدول تفرقه وتدفعه إلى أن يقول هذه العبارة. ويقوده هذا إلى التفكير في اللاجدوى الحياة نفسها فيما بعد.

ومن ذلك عندما أراد أن يتصالح مع زميله حاتم بعد وقوع سوء تفاهم بينهما كان يقول في داخله: "...ولكني أعرف في قرارة نفسي أنه لا فائدة..."^{٥١٠} فقد خانته من زمان، ولم يزل تأثير الخيانة باق في داخله بدرجة يشعر باللاجدوى والأهمية حتى طلب المسامحة من صديقه الذي خانته، لأن تلك اللحظة جاءت ومرت دون رجعة إلى الأبد. ولا يستبعد أن هذا التفكير يدفعه إلى التفكير في اللاجدوى الحياة التي أفسدتها خيانة الصداقة والزمانة.

وقد اختفى الروح العدمية في الرواية الثالثة، وظهر في الرواية التي تليها. ويبدو هذا الروح في شخصية الراوي وإبراهيم الحلاوي وبريجيت. وبالنسبة للراوي الممثل يلاحظ أنه عندما تأزمت الظروف الاجتماعية والسياسية عليه واستغرق في التفكير باحثاً عن سبب طلاقه منار وعجز عن الحصول على الإجابة استسلم وبئس. ودفعته حالة اليأس إلى اكتشاف كون الحياة كذبة، وإلى كونه يعيش في كذب. وإذا كان يعيش في كذب فكأنه لا فائدة حياته. ويقول في مونولوج:

وما معنى أن استمر في هذه الحياة الكذبة؟ من أكون.. ولم لا أنزل الآن في جوف

النهر. أرقب من قلب الماء بطون ذلك البجع الأبيض الرجاجة وأصلي أن يحملي

^{٥٠٩} بماء طاهر. ١٩٨٥م. قالت ضحى. ص. ٣٧.

^{٥١٠} المصدر نفسه. ص. ١١٣.

التيار بعيدا جدا، بعيدا عن البجع وعن البط وعن الأشجار والجبال وعن البشر -

بعيدا إلى فجوة مدفونة وسط الصخور أندس فيها وأنزوي ثم تغمرني الطحالب

والنباتات والقواقع والأسماك وتخفيني إلى الأبد؟^{٥١١}

ويبدو من الاقتباس السابق أنّ الراوي، إضافة على كونه سئم من الحياة وسط الأكاذيب اليومية، تقوده هذه الحالة إلى البحث عن الذات والحرص الشديد في اكتشاف هذا الذات. ولما استبد به الغضب من نفسه ومن الحياة بجملتها بما فيها من الظروف الاجتماعية الاقتصادية والسياسية التي صنعتها تمنى أن تنتهي حياته حين قال: "لو أي فقط أتلاشى!"^{٥١٢} ومردّد كل ذلك هو انتشار الروح العدمية في خلايا هذه الشخصية، تلك التي تدفعها إلى التفكير في اللاجدوى الحياة.

وجاء الاقتباسان السابقان اللذان تتعلقان بالراوي الصحفي عندما يتحدث مع إبراهيم. وعندما انضم إلى مقعد الدكتور مولر مع بريجيت بدعوة من إبراهيم، لاحظت بريجيت شرودا منه فسألته فيم يفكر؟ فأجاب بلا تدبر: "في أن هذه الحياة كذبة."^{٥١٣} ويؤكد الراوي لإبراهيم هذه الفكرة وهذا الشعور بدأ يستبد به في الأيام الأخيرة. وذلك عندما استمررا يبحث الماضي السياسي الذي كان من الأسباب الرئيسة في خروجهم من دولتهم واختيارهم الغربية. يقول له: "كل ما في الأمر أنني اكتشفت اليوم شيئا مهماً جداً. ربما بفضل بيدرو إيبانيز أو ربما كنت أنت السبب أو لعلها بريجيت أو لعلها منار: اكتشفت أنني أكذب."^{٥١٤} فما يدفعه إلى قول هذا لا محالة هو يأسه في استحالة تحسّن الظروف الحياتية الاجتماعية والسياسية، والذي يقوده إلى الشعور بالالفائدة الحياة، ومن ثمّ تبني أفضلية عدمها.

وبالنسبة لإبراهيم، اكتشف الباحث أنه يتمنى حياة غيره، لا الحياة التي يعيشها هو نفسه. فهو ربما لسبب الظروف الاجتماعية القاسية التي تحيط بطفولته والظروف السياسية التي صنعت أيام شبابه يتمنى أن يكون إنساناً آخر غير

^{٥١١} بماء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ٤٣.

^{٥١٢} المصدر نفسه. ص. ٤٣.

^{٥١٣} المصدر نفسه. ص. ٤٦.

^{٥١٤} المصدر نفسه. ص. ٥٦.

نفسه، أو يكون كالراوي الصحفي. يسأل نفسه تارة: "لماذا لم أكن أنا أنت؟ لماذا لم أكن أي إنسان آخر بدلا من أن أكون أنا؟"^{٥١٥} ويعتبر هذا طريقة أخرى للتعبير عن اللاجدوى الحياة التي كان يعيشها قبل اعتقاله، أو التي يعيشها في حاضره في الوقت الذي يتحدث مع الراوي في تلك المدينة (ن). ويقوده هذا التفكير إلى البحث عن الذات، والحرص الشديد على اكتشاف نفسه.

أمّا من جانب بريجيت فقد لوحظ أنها تفكّر مثل ذلك التفكير عن اللاجدوى الحياة ومحاولة المرء أن يفعل شيئا لتحسين الظروف التي تحيط به. وبعد إحباط أملها في حياة حبها مع الراوي وبأسها من أنّ الأحوال تتحسن في المستقبل، لاحظت الباحثة أنّها لا تريد حتى المحاولة في رجوع وظيفتها إليها. أو حتى طلب تفاصيل عن الأسباب والملابس التي أدت إلى فصلها عن وظيفتها. فتصرخ للراوي حين أراد أن يطلب شرحاً من مدير التحرير في مصر عن فصله هو الآخر عن وظيفته، وقالت: "هذا عالم ماسياس وسمو الأمير. لا فائدة!"^{٥١٦} معنى هذا، أنّها ترى اللاجدوى واللافايدة فعله، وهذا الذي قادها إلى أن تبوح بما قالت حتى لا يضيع وقته في شيء ليس جديراً لتضييع الوقت فيه.

ويبرز الروح العدمية في الرواية الخامسة عند شخصيتين: سالم ولبنى. وبالنسبة لسالم يبدو أنه بدأ يفكر في اللاجدوى الحياة أو اللاجدوى محاولة الشخص أن يفعل شيئا تجاه موقف معين في حياته الاجتماعية والسياسية والعاطفية، لأنه يرى عدم أهمية ذلك الفعل أو تلك المحاولة. فكلاهما لا يأتي بنتيجة متوقعة أو جيدة في نظر الشخصية. ومن هنا يلاحظ أنّ سالم يتردد في محاولة التكلّم مع لبنى لكي يشرح لها ما حدث. فهو يخاف من أن يخسرها. ويقول في هذا الصدد: " لا فائدة! خسرها وانتهى الأمر."^{٥١٧} ومع أنه تغلّب على التردد وطلبها في الجامعة، إلا إنه لم يرها. وبدلاً من مقابلتها أخبر بالقبض عليها وتسجينها.

ومن ذلك يرى الباحث أنّ سالم في محنته واستغراقه كثيراً من الأيام والأسابيع والشهور في هذه المحنة إشارة واضحة

^{٥١٥} بماء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ٨٢.

^{٥١٦} المصدر نفسه. ص. ٢٤٣.

^{٥١٧} بماء طاهر. ٢٠٠١م. نقطة النور. ص. ١٤٣.

إلى أنّ الروح العدمية يؤكّد حضوره في حياته. فيحتمل أنّ تصرفاته وقتئذ تشير إلى أنه لا يرى أهمية للحياة العادية التي يعيشها الناس العاديون؛ لأنه فقد أعلى شيء في حياته، ومن ثم يفضل البقاء في اللاوعي والانطواء في داخله، مع أنه استسلم وترك التفكير في محبوبته فيما بعد. ومن ثم عاد إلى الحياة العادية مع الناس العاديين، مع مساعدة بعض الأعشاب من العطار، جار الباشكاتب، وتوفيق من الله الذي أذن له بالشفاء بأن عاد عليه عقله وعاد يفكر كالناس العاديين.

ومن جانب لبي اكتشف الباحث أنها عندما تأزمت الأحوال والحوادث وتضافت الظروف الاجتماعية والسياسية على عاتقها، أصبح حتى سالم ليس له فائدة في إخراجها من حالة خوفها. وتقول في هذه المناسبة: "قلت لك لا فائدة. انصرف الآن! حتى هذا كذب! لا أحد يحمي أحدا من خوفه."^{١٨} فيبدو لها أن محاولة سالم في حمايتها وقتئذ ليست لها فائدة. ذلك لأنّ الضرر وقع. تشير إلى معرفة البوليس انضمامها إلى مجموعة الطلاب الغاضبين على الحكومة. أبلغ مرتضى الحكومة. وهو عضو من أعضاء المجموعة، الذي صمم على إبلاغ الحكومة حول أمورهم منذ أن سرق سالم لبي منه. عرفت ذلك عبر الاتصال من صديقتها دعاء. وبعد المكالمة صدر منها تعبير: "ما الفائدة؟" دون وعي. وهذا نفسه يؤكّد حضور الشعور باللاجئ في الحياة في اللاوعي الشخصية. كما يقودها ذلك إلى التفكير في عدم وجود فائدة أو جدوى لحياتها، كما سيتضح ذلك بطريقة أكثر وضوحاً فيما بعد.

على أنه عندما رجعت لبي من روما زارت سالم. وأثناء انظاره استغرقت تفكر في كيف كانت حياتها سيئة إلى حد أن ترى لا فائدة منها. وليس هذا فحسب، بل ترى أنها هي نفسها غلطة لا فائدة منها. ولذا تجيب على سؤال سألت نفسها إياه: لماذا تأتي إلى سالم؟ فتجيب: "قد تكون غلطة. لا يهم. كل شيء غلطة. أنا نفسي غلطة لا فائدة منها."^{١٩} فإذا إنّ الموت يكون أنسب لها بدلاً من الحياة. وقد شعرت أيضاً بتلك الرغبة في الموت بعد دخولها البيت

^{١٨} بماء طاهر. ٢٠٠١م. نقطة النور. ص. ١٤٣.

^{١٩} المصدر نفسه. ص. ٢٣٣.

للمرة الأولى بعد الوصول إلى مصر، في مونولوج يعبر عن مرضها وشفائها. ومن ذلك تقول: "...شفيت من كل شيء حتى من الرغبة في الحياة!"^{٥٢٠} ويلاحظ أنّ مردّ كل هذا هو انتشار خلايا الروح العدميّة في نفس شخصيّة لبنى.

واكتشف الباحث في الرواية السادسة أنّ محمود عزمي هو الذي يفوز بنصيب وافر في إظهار اللاجدوى والأهميّة الحياة بعد منازلة ومكافحة وتعبٍ شديد. وتليه في إبراز هذا الروح زوجه كاثرين. و يأتي بعدها الشيخ يحيى. في البداية كان تفكير محمود في اللاجدوى المحاولة والأهميّة العمل تجاه موقفه فيما يتعلق بمسألة فرار نعمة السمراء. كان يعرف في أعماق قلبه أنّ الغلطة غلطته، وأنه هو الذي قادها إلى اتخاذ القرار الذي أخذته. فلذا يرى أنه لا فائدة حتى من البحث عنها بعد أن تعب في ذلك البحث دون جدوى.^{٥٢١} وقد استخلص الباحث هذا من خلال تصرّفات المأمور وعدم مبالاته باستمرار البحث عنها. ولا يوجد أيّ نص صريح يشير إلى تفكيره في اللاجدوى البحث عنها.

والمرة الثانية التي يظهر التفكير في اللاجدوى العمل عند مأمور الواحة هي عندما كانت قافلته في الصحراء. استعصى النوم عن جفنيه تحت الشمس الحارقة الساطعة. وحاول أن يهرب من وجه زميله طلعت الذي يطلع عليه في تلك الصحراء، لكن لا فائدة. ويقول: "لا نوم يقترب من جفوني ولا أستطيع حتى أن أغمض عيني. لا مهرب من وجه طلعت".^{٥٢٢} ومصدر قلقه عن زميله هو وقوع خيانة بينهما أيام ثورة عرابي باشا، إذ إنهما كانا يعملان في جهة واحدة. وعندما تأزمت الأحوال في السيوة عاوده التفكير في اللاجدوى التفكير في الأحداث الماضية والظروف الاجتماعية والسياسية الماضية التي صنعتها ضابطاً ومأموراً في سيوة. مرة حاول أن يُشغل نفسه بكتابة ردود على آخر مكاتبات النظارة ليرسلها مع القافلة المقبلة. لكن لا فائدة. لم يستطع التركيز على أي شيء.^{٥٢٣} ومرة يقول الراوي، الذي هو محمود نفسه: "لا فائدة. قمت وبدأت كالعادة أتحرّك في المكتب الواسع. لا فائدة."^{٥٢٤}

^{٥٢٠} بقاء طاهر. ٢٠٠١م. نقطة النور. ص. ٢٣٣.

^{٥٢١} بقاء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ٨٥.

^{٥٢٢} المصدر نفسه. ص. ٤٣.

^{٥٢٣} المصدر نفسه. ص. ٢٢٨.

^{٥٢٤} المصدر نفسه. ص. ٢٣٠.

ويُظهر هذا الاقتباس القصير مدى التحسر الذي تجلبه الظروف الحياتية التي تحيط بالمأمور. على أنّ رسالة الأمير الآي سعيد زميله في النظارة في مصر قد بعثت ذكرى محزنة. يتمنى له أن يكون في غاية الصحة وأن يكون على درجة أعلى من السرور. يفكر محمود في كيف يردّ لهذا الزميل الطيب بدون أن يكذب. إذ إنه بعيد عن أن يكون في سرور ناهيك عن أعلى درجة منه. لأنّ ظروف مليكة القتيلة تضافت مع ظروف فيونا المريضة في قلبه. فأصبح القلب لا يعرف أية فرحة أو سرور.

استمر محمود عزمي بإدمان التفكير في ماضيه البعيد والقريب، كما استمر بالتساؤل عن أهميّة التفكير أو معناه. ويقول في هذا الصدد: "وكلما فتحت صفحة وجدتها أسوأ من التي سبقتها. ليتني لم أكن أنا! ليتني كنت أخي سليمان مثلاً، أنا التاجر في الشام وهو الضابط في الشرطة، لم لا؟"^{٥٢٥} ويبدو أنه شغل نفسه بنكران الذات. لذا يسأل نفسه لماذا لم يكن أخاه سليمان مثلاً، بدلاً من أن يكون هو الضابط الذي تحفه كل هذه المشكلات والمأساة. ولو يخدمه الحظ يمكن أن يكون الأمر كذلك، كما استمر يفكر. وعندما أصبح مستغرقاً في هذا التفكير، شرع يفكر في اللاهمنيّة حتى التفكير في الماضي البعيد والقريب معاً.

وفي جانب من حياة الضابط المأمور محمود عزمي عبد الظاهر يلاحظ القارئ أنّ هناك ضباطاً جديداً أرسل من مصر يريد أن يأخذ منصب المأمور لنفسه. ويسمى هذا الضابط اليوزباشي وصفي. للحصول على مبتغاه، حاول التقرب والتودّد إلى الأجواد. وحاول كتابة التقارير السرية إلى النظارة عن الظروف والتطوّرات في السيوّة. وعندما لاحظ محمود ذلك عن طريق تصرفات اليوزباشي وقراءة رسالة أرسلت إليه من النظارة تشرح كل ما يظنه محمود وتوضّحه، حينئذٍ شعر بذلك اليوزباشي وصفي وحاول أن يشرح لمحمود إنه قد حدث سوء تفاهم، وأنّ لديه شيء من الشرح تجاه المسألة. ومن هنا قال له محمود: لا يريد أن يسمع "أي شرح. الغلطة في الحياة نفسها."^{٥٢٦}

^{٥٢٥} بماء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ٢٦٤.

^{٥٢٦} المصدر نفسه. ص. ٢٨٣.

فمأمور الواحة يرى أنه لو لم يكن يعيش مثل الحياة التي عاشها لما جاء البيوزباشي بنفقاته مع النظارة. وبالتالي يرى اللافائدة شرحه للمسألة. وقد قال هذا في طريقه إلى تهدم معبد أم عبيد الذي يراه بداية لكل المصائب التي حلت به في السيوة، وبالتالي يتحتم له هدمه. ويزيد في مونولوج: "ما العمل يا شيخ وكل الحكمة لا تفيد في أن تهدي الراحة إلى القلب؟ الغلطة في الحياة بالفعل، أنا لم أختَر حياتي. لم أختَر أن آتي إلى هذه الواحة ولا اخترت أن تدخل مليكة بيتي ولا أن تأتي فيونا إلى قلب الصحراء."^{٥٢٧} فيؤكد هذا الاقتباس القصير ما يذهب إليه الباحث من حضور شعور شخصية البطل المشارك بالشعور باللاجدوى الحياة التي تعيشها، ومن ثم يتجلى روح عدميتها.

ويظهر اللاجدوى الفعل والأهميته في موقف معين عند كاثرين في العلاقة الزوجية بينها وبين زوجها الأول، مايكل. كان أساس الزواج باطلاً. إذ إنَّ مايكل أراد تعذيب نفسه لذا تزوج بها. أرادت أن تحسن إليه. فبدأت تمتدح مقالاته بدون فائدة. فقد لاحظ أنها تناقته. وأنَّ إعجابها بمقالاته كاذب.^{٥٢٨} وكانت المرة الثانية التي تشعر باللاجدوى الفعل وبالأهميته هي في زيارتها لمعبد أم عبيدة. رأت أشياء مفيدة تساعدها في بحثها عن الآلهة المصرية القديمة وضريح الإسكندر الأكبر. وتحتاج إلى مساعدة أهل السيوة. لكن لا فائدة؛ فلا أحد يمد لها يداً في ذلك.^{٥٢٩} أي لا فائدة في محاولتها أن تجد من يساعدها فيما تبحث عنه. فهم يعتبرونها كافرة لا تستحق حتى النظرة الودودة منهم ناهيك عن مساعدة. كما أنها زوج المأمور الذي جاء إليهم مستعمرًا إياهم.

وتتمثل المرة الثالثة التي تشعر كاثرين باللاجدوى الفعل والأهميته في تفكيرها عن أحوال وعادات أهل السيوة. كانت تحاول التودد والابتسام لهم أو محاولة الكلام معهم فكفَّت عن ذلك من مدة. لأنه لا فائدة في تلك الأفعال. ولأنَّ الواحة ناكرة للجميل. ومن ذلك مادام أنَّ محمود قد - كما يبدو لكاثرين - عرض نفسه للخطر لإنقاذ واحد من

^{٥٢٧} بقاء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ٢٨٤.

^{٥٢٨} المصدر نفسه. ص. ٢٥.

^{٥٢٩} المصدر نفسه. ص. ٩٨.

أطفالهم، فيجب أن يظهر له الامتنان لا أن يعرضوه للمتاعب في جمع الحصص والضرائب.^{٥٣٠} وكل هذه المواقف تقودها شيئاً فشيئاً إلى التفكير في اللاجدوى الحياة ضمناً. وإن لم يصرح الروائي بذلك في نص الرواية، إلا أن المواقف وتصرفات الشخصية توحى بذلك وتؤكد. كما أن هذا يؤكد حضور الروح العدمية في البعد الداخلي للشخصية.

يأتي بعد محمود وكاثرين دور الشيخ يحيى في إبراز الروح العدمية. وقد سبقت الإشارة إلى اغترابه بسبب الظروف التي تحيط بمليكة. وعندما أخبر عن موتها الغريب قرر أن لا يراها ميتة إذ المجتمع كله ساعد في مأساتها. ويقول في هذا الصدد: "ضاعت بكذب الرجال ورعب النساء وغرور ذلك المأمور الذي يأكله الحقد" ومادام أنها "ضاعت فما أهمية أي شيء؟"^{٥٣١} يرى الشيخ مادام أن مليكة ماتت فما جدوى وما أهمية أن يحاول رؤيتها أو يراها فعلاً؟ هو لا يريد أن يراها ميتة؛ إن ذلك يزيد به بؤساً وشقاءً. كما أن المجتمع كله ساعد في قتلها، بمن فيه من الذين اخترعوا خرافة الغولة، والذين زوّجوها لعجوز لا تحبه، ومحمود وكاثرين اللذين طرداها من بيتها وكشفا عنها اللثام، والذين قادوها إلى الموت زاعمين بظهور مصائب في السيوة، وأن لا تزول تلك المصائب إلا بتنفيذ ما دبوا. فمن هنا يرى الشيخ أن كل هؤلاء شاركوا في قتل مليكة؛ ومن ثم لا أهمية لأي شيء؛ وحتى الحياة لا جدوى لها. وربما هذا الذي يفسر قراره في ابتعاد عن مجتمعه البدائي بخرافاته، وذلك في خلوته في حديقته. كما أنه ينوي ألا يخرج منها إلا ميتاً.

المطلب الرابع: بديل الحزن

تزاول الشخصية التي تبدو عناصر الاغتراب الأربعة في تصرفاتها وأفعالها وسلوكها إحدى الأمرين كما يرى ذلك عبد الرّحيم محمد عبد الرّحيم. أحدهما: الهروب في خبايا الأحلام والذكريات، وثانيهما: الهروب في دروب الخمر والإدمان ثم الجنون أو الموت.^{٥٣٢} ويتجلى بديل الحزن في جميع الروايات المدروسة بتفاوت بينها. إلا إن شخصية صفيّة المغتربة في

^{٥٣٠} بماء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ١٤٧.

^{٥٣١} المصدر نفسه. ص. ١٨٥.

^{٥٣٢} عبد الرّحيم محمد عبد الرّحيم. ١٤١١هـ/١٩٩٠م. دراسات في الرواية العربية. د. م: دار الحقيقة للإعلام الدولي. ط. ١. ص. ٨.

مجتمعها وبين أهلها، في الرواية الثالثة، تزاول شيئين بوصفهما بديل الحزن لحبها المفقود. إحداها هو نوع من الجنون والآخر ليس إدمان لشرب الخمر، بل إدمان لمزاولة تصرفات وأعمال غريبة اعتربها الباحث بديلاً لحزنها. وباستثناء صفة، كل الشخصيات التي يتمثل فيها بديل الحزن، يبدو إما أن يكون واحداً من الشيئين، كما ظهر في رسم شخصية الراوي المشارك في الرواية الأولى، أو كليهما، كما تجلّى في وصف شخصية محمود عزمي في الرواية السادسة.

يظهر عنصر بديل الحزن في الرواية الأولى في الراوي المشارك الذي لم يحدد باسم. اكتُشف أنه عندما تأزمت الأحوال لديه وأصبح وعيه منشطاً بين ما هو واقعي وما هو خيالي، بين ماضيه وحاضره، أصبح لا يطبق الواقع الحالي. ومن ثمّ ابتغى أن يدفن أحزانه وإحباطات آماله في الخمر والبيرة والتردد في بار ستيللا حتى أصبح هذا البار مقرّه الرئيس، كما قال ذلك الضابط الذي جاء إلى غرفته للبحث عن سمير، رفيق غرفته. يقول الضابط على لسان الراوي: "أفهم أن مقرّك الرئيسي الآن هو بار ستيللا."^{٥٣٣} أصبح هذا البديل بالنسبة له شيئاً يحتاج إليه عاجلاً. ولذا يلاحظ احتياجه إلى البيرة فيما دار بينه وبين سوزي. فعندما سألته عن اصفرار يبدو في وجهه أجاب بأنه أكل وتقياً. فاقترحت له الذهاب إلى المستشفى. وعندئذ قال لها: "سمعي يا سوزي. أنا أعرف علاجي، نشرب بعض البيرة فيصبح كل شيء أحسن ما يكون..."^{٥٣٤}

ويلاحظ أنّ الراوي المشارك تارة يقول: "بدأ ذلك الجفاف في حلقي والنقر الخفيف الذي أعرفه جيداً في رأسي. لا بد أن أشرب. لا تحاول أي مواعظ. لا بد أن أشرب قبل أن أنام حتى لا يصبح الليل كالنهار أحلاماً وكوايبس وتلك الصور الثابتة التي تتكرر كل يوم ودون أمل أن تختفي. لا بد أن أشرب."^{٥٣٥} كما أصبح ذلك ما يشغل باله دائماً. ولذا يفكر في أن يكمل شرب البيرة في طريقهما هو وسمير إلى ميدان التحرير، لأنّ سمير طلبه أن يأتي معه ليكلم صاحبه ليلى التي كانت هناك منذ الصباح ولا تريد الرجوع إلى البيت. يقول الراوي: "حاولت أن أخمن فيم يريدني سمير وفشلت. واتجه

^{٥٣٣} بجاء طاهر. ١٩٨٥م. شرق النخيل. ص. ٦٦.

^{٥٣٤} المصدر نفسه. ص. ٧٠.

^{٥٣٥} المصدر نفسه. ص. ٦٠.

ذهني إلى زجاجتي البيرة المتروكتين على المائدة.^{٥٣٦} كما يصرّح هذا التفكير لزميله قبل أن يقول له سبب طلبه الذي أُشير إليه: "لو تركتني الآن فإن رغبتى الوحيدة الحقيقية هي أن أعود لأكمل البيرة."^{٥٣٧}

وزيادة على ما سبق، يصف الكاتب الراوي تارة في إدمان الخمر مع سوزي نديمته. ومع أنها ليست من ضمن المغتربين، إلا إنها هي الأخرى تعرّضت لبعض الأحداث الاجتماعية السياسية الحزينة التي ترى أنه لا بد من أن تلوذ بالبيرة للهروب من قساوة الظروف الحياتية الاجتماعية والسياسية. ويقول الراوي المشارك في هذا الصدد: "كانت تتكلم وهي تعب البيرة فأنمت زجاجة قبل أن أصب لنفسي كوبا واحدا. وظهرت في وجنتيها السمرالوين بقعتان حمراوان مستديرتان ولمعت عينها وهي تضحك بلا انقطاع."^{٥٣٨} ويبدو أنّ نديمته أحوج منه إلى هذا البديل للحزن بدرجة أنها تنهي زجاجة قبل أن يصب لنفسه كوبا واحدا. ربما بهذه الطريقة تذهب همومها بسرعة وتنساها.

ويحرّك الباحث الآن زمام المناقشة إلى الرواية الثانية. ويبدو أنّ بديل الحزن يقتصر برونه في هذه الرواية في شخصية الراوي المشارك الذي لم يسم أيضاً. في المرة الأولى التي لجأ إلى بديل الحزن يتمثل هذا البديل في الانهماك في العمل. ويقول الراوي في هذا الصدد: "صرت أخلق أعمالا غير مطلوبة. أنظم الملفات المكونة وأرسم من جديد خرائط تنظيم الوزارة التي لم يعد يطلبها أو يذكرها أحد. وجرّيت أن أشرب أحيانا بالليل..."^{٥٣٩} وقد فعل كل هذا بسبب وقوعه في حب ضحى الذي يبدو له حباّ ميؤوسا، إذ إنها امرأة. فلاذ بتلك الأفعال والتصرّفات لكي يهرب من أزمة الحب.

وتتجلى المرة الثانية التي يلوذ الراوي ببديل الحزن عندما تركته ضحى. بادلته الحبّ بكل قلبها بعد أن رأت مدى حبه إياها. ثم تركته ربما لتذكرها أنها امرأة متزوجة وأنّ ذلك الحب لا ينتج نتيجة جيّدة. فالأفضل أن تنهي العلاقة معه. ففعلت ذلك بعد أن وقعت في حالة الإجهاض. وربما هذا هو الدافع الرئيس الذي ردّها لها عقلها، وبالتالي ملاحظتها

^{٥٣٦} بماء طاهر. ١٩٨٥م. شرق النخيل. ص. ٨٠.

^{٥٣٧} المصدر نفسه. ص. ٧٥.

^{٥٣٨} المصدر نفسه. ص. ٧٤.

^{٥٣٩} بماء طاهر. ١٩٨٥م. قالت ضحى. ٤١.

عدم جواز علاقتها بالراوي. ومن ثمَّ لجأ إلى الطاولة ومنها انتقل إلى الشطرنج. ويقول الراوي حول هذا الموقف: "كنت أقيم في المقهى طول الوقت، انتقلت من الطاولة إلى الشطرنج وكان ذلك يقضي على الوقت بطريقة ممتازة، لا يتيح حتى الفرصة للتفكير في الأكل."^{٥٤٠} ثم زاد الارتواء في أحضان المومسات في القائمة. ويقول الراوي المشارك في هذا الصدد: "وكانت تضحك ضحكات متقطعة وهي تقول يخرب بيتك. هل تأكل في آخر زارك؟ لماذا لم تأت من أول العشاء؟ فضاعفت لها الحسنة."^{٥٤١}

وكان لجوؤ الراوي إلى الطاولة والشطرنج والمومسات عندما رجع إلى مصر. أما في روما فقد فُكّر في البديل الآخر: الانتحار. وذلك لما قابل عجوزاً وحدّثه عن محاولاته للانتحار ثلاث مرات، لكن كل مرة يجد من ينقذه. ولم ينتحر الراوي أيامها. لكنه بحث عما يخفف له شدة وطأة مأساته فوجد ذلك في الخروج في الليل والمشى في البرد بدرجة أنه لم يكن ينتبه للسعال الذي كان يزيد يوماً بعد يوم ويضر بصحته. ويقول الراوي المشارك: "لم أنتحر بعد ذلك ولكن في تلك الأيام كنت أخرج في الليل وأمشي في البرد ولم أنتبه للسعال الذي كان يزيد يوماً بعد يوم."^{٥٤٢} ومع أنّ هذه التصرفات تضرّه إلا إنه يراها مهمة لكي لا يقوده التفكير واليأس إلى الانتحار فعلاً.

على أنّ هناك في هذه الرواية إشارات مبثوثة تشير إلى إدمان الخمر من شخصية ضحى، إلا إنّ الباحث لم يعتبرها بديلاً للحزن لأنّ سائر العناصر المكونة للاغتراب لم تظهر عند الشخصية: اليأس والروح العدمية مثلاً. وقد أشار المؤلّف إلى أنّها تعلمت أنّ تشرب لكي تفسد مغامرات وألعاب زوجها مع النساء، تلك المغامرات التي لا يشعر حتى بالحاجة إلى إخفائها. تقول ضحى: "وتعلمت أيامها أن أشرب. تعلمت أيضاً أن أفسد عليه لعبته فلم يعد يقيم تلك الحفلات."^{٥٤٣} كما أنّها ذات يوم شربت أربعة كؤوس من البيرة في روما. وحاول أن يمنعها الراوي. إلا أنّها كانت ترجوه

^{٥٤٠} بماء طاهر. ١٩٨٥م. قالت ضحى. ص. ١٠٦.

^{٥٤١} المصدر نفسه. ص. ١٠١.

^{٥٤٢} المصدر نفسه. ص. ٨٩.

^{٥٤٣} المصدر نفسه. ص. ٦٠.

أن يتركها لأنه لا يعرف لماذا تشرب.

أما بالنسبة لصفية في الرواية الثالثة، فقد لوحظ أنها بعد أن فقدت حُبها لحربي وأصبح عالمها ومحيطها البيئي مفككاً مزعزعاً ومراوغاً غير قابل للفهم،^{٥٤٤} شرعت تبحث عن بديل لذلك الحب المفقود في البك القنصل. ربما لذا تبدو كأنها تحبه. لكن ما تبادلته تجاه البك ليس حبا، وإنما هو شيء آخر. والذي يؤكد هذا التفسير الذي يذهب إليه الباحث هو أنها عندما أصيبت بمرض جسيمي وعقلي معاً بعد وفاة حربي بقليل كانت تهذي في لحظاتها الأخيرة قائلة: "نعم يا والدي اعذربي.. لا أستطيع أن أقوم.. ولكن إن كان حربي يطلب يدي فقل للبك إني موافقة.. أنت وكيلي يا ولدي.. وأنا موافقة على أي مهر يدفعه حربي.. لا تشغل بالك بالمهر.."^{٥٤٥}

ويتمثل بديل حزنها في محاولتها أن تأخذ ثأرها لقتل زوجها، والذي قام به حربي في محاولته أن يدافع عن نفسه. حاولت أن تقتل حربي. واستأجرت حنين، رئيس المطاريد بعد أن اختفى رئيسهم السابق، زميل حربي في أيام السجن في القاهرة. ولم ينجح حنين في هذه المهمة. وبدلاً من ذلك نجح حربي في إنقاذ نفسه وقتل حنين في محاولته الدفاع عن نفسه. يقول حربي قاصداً للراوي الطفل الحادثة:

إن تلك الصرخة هي التي أنقذت حياته، فقد استقرت الرصاصة جنبه بالضبط وهو مقرفص على الأرض.. يقول إن البندقية اهتزت في يد حنين في تلك اللحظة وإن الحصان شبَّ على ساقيه الخلفيتين فاستطاع حربي أن يخرج المسدس من جيبه وأن يصيب حنين في صدره فاستدار منكفئاً على الحصان وجرى به في الجبل.^{٥٤٦}

ومما يؤكد تفسير الباحث ما قالته صفية في الصفحة نفسها والتي تليها، والذي يثبت أن فضل، أو بالأحرى ذنب الهجوم على حربي يرجع إليها، وأنها هي المدبرة له. كما كان حنين منفذا فاشلا له. فيبدو من أعمال صفية وتصرفاتها

^{٥٤٤} شاعر عبد الحميد. ١٩٩٣م. "الموت والحلم في عالم بهاء طاهر". ص. ١٨٧.

^{٥٤٥} بهاء طاهر. ١٩٩١م. خالتي صفية والدير. ص. ١٣٦.

^{٥٤٦} المصدر نفسه. ص. ١٣٠.

أنها تبحث عن بديل حزنها المفقود في محاولة الأخذ بالتأثر.^{٥٤٧} كما أنّ محاولة الأخذ بالتأثر هي الجانب الأول الذي يظهر فيه بحث الشخصية عن بديل الحزن.

ويتجلى الجانب الثاني في بعض التصرفات والأعمال التي تراوها صفيّة. ومنها على سبيل المثال، أنها أصبحت تستحمّ مرة واحدة في كل يوم. وتارة لا تستحم في بعض الأيام، وذلك بعد أن كانت تستحم مرتين يوميا. يقول الراوي الطفل: "وهل يجوز أن أنقل ما سمعت أُمي تقوله لإخوتي من أنها منذ نزلت البلد لم تعد تكثر من الاستحمام كما كانت تفعل في السراي أيام كانت تستحم في اليوم الواحد مرتين؟".^{٥٤٨} ومنها: بدأت تتصرف تصرفات اللاعادية فيما يخص النساء اللاتي في مثل سنّها. فقد لاحظ الباحث أنها تعرف حمل امرأة قبل أن تعرف المرأة نفسها.

ومن التصرفات الغريبة التي بدأت تراوها صفيّة التنبؤ بحدث قبل حدوثه، مثل مجيء الثعبان في مزرعة والأمر بقتله وليفتّه.^{٥٤٩} ومن ثمّ شاع اعتقاد في القرية: إن صفيّة أصبحت مكشوفة الرأس. و"كانت تستقبل الرجال في البيت. وتزرع الأرض بنفسها. بمعنى أنها كانت هي التي تؤجر الأرض للفلاحين وتقبض منهم. بل وتحدد لهم ما يزرعون في كل حقل، وهذا حق لم يكتسبه حتى عجائز المالكات عندنا فقد كانت العادة هي أن توكل المرأة للتصرف في ميراثها خالا أو عما أو أخوا...".^{٥٥٠}

وزيادة على ما سبق، قد أصبحت صفيّة تتصرف كالعجائز في المآتم. تدخن الجوزة التي تحرمها عادة القرية على الشابات والبنات. يقول الراوي الطفل في هذا الصدد: "انترعت خالتي صفيّة حق (الجوزة) من أول مآتم حضرته بعد وفاة البك. وبعد قليل كانت عندها جوزتها الخاصة في البيت.. كانت تسحب نفسها طويلا وتكتم النفس مثل المدمنين من سنين ثم تخرج الدخان من أنفها على مراحل متعاقبة في سلسلة من الدوائر الصغيرة..".^{٥٥١} فكل هذه تصرفات يمكن اعتبارها

^{٥٤٧} بهاء طاهر. ١٩٩١م. خالتي صفيّة والدير. ص. ١٣٠-١٣١.

^{٥٤٨} المصدر نفسه. ص. ٧٨.

^{٥٤٩} المصدر نفسه. ص. ٨٠.

^{٥٥٠} المصدر نفسه. ص. ٨١.

^{٥٥١} المصدر نفسه. ص. ٨٤.

نوعاً من الجنون، أو بالأحرى فقد وعي الشخصية وارتانها. ومن خلال هذه التصرفات، استطاع المؤلف أن يمثل بديل الحزن لشخصية صافية التي أصبحت معتربة في وطنها وبين أهلها بسبب فقد الحب.

ومن المغتربين الذين لجأوا إلى إحدى البدلين للحزن المذكورين أو حاولوا أن يلجأوا إلى كليهما أو واحد منهما في الرواية الرابعة: الراوي وبريجيت وألبرت ويوسف المصري. وقد حاولت بريجيت أن تلجأ إلى الانتحار وتدفع الراوي الصحفي أن ينتحر معها في لحظة واحدة. كانا في طريق المطار يصاحبها الراوي للرجوع إلى النمسا. وقبل ذلك كانا قد افترقا عن وظيفتهما.^{٥٥٢} وجزَّ اليأس بريجيت إلى الرجوع إلى البلد. كما دفع الراوي إلى محاولة تصفية الحسابات مع الأمير الذي بأمره فُصِّل عن عمله، مع أنه لم ينجح في ذلك. حيث إنَّ الأمير رفض مجرد رؤيته في بيته. وتركه يباح الكلاب الوحشية.

وكانت بريجيت تسأله عن أين السلام إذا كانت الدنيا مليئة بهذه الفوضى وهذه التآزمات والمآسي والفواجع والكدر. فأجابها دون وعي: بالنوم والحلم. وفسترت ذلك على أنه يقصد الانتحار. وزادت قاتلة: "من يحتمل هذه الدنيا؟ من يحتمل غطرسة المتكبرين والطغاة والأمراء وآلام الحب المخدول والانتظار الطويل واستحالة العدل وهزيمة الرقة أمام الوحشية وكل تلك الأنانية وكل ذلك الظلم..."^{٥٥٣} ثم دفعت مقود السيارة إلى حافة الطريق المرتفع وهو يحاول أن يدفعها جانباً إلى أن وصلت بالفعل إلى طرف الطريق فحذب فرامل اليد قبل أن تنزلق إلى الحافة. ووقفت السيارة في صرير عنيف. هكذا أنقذهما الراوي من الانتحار الذي رآته بريجيت البديل الوحيد لحزنهما معاً.

ومع ذلك حاول الراوي الصحفي أن ينتحر مرة أخرى. والراجح أنه نجح في محاولته هذه المرة، مع أنَّ الغموض يحفّ التجربة. حاول أولاً أن يصفى حسابات مع الأمير حامد، الذي كان المدبّر والمنفذ لحكاية فقد الراوي وبريجيت وظيفتهما، لأنهما وقفا في طريقه. لكنَّ الراوي لم ينجح في هذه المهمة.^{٥٥٤} ولا يستبعد أنه قد استبدَّ به اليأس من

^{٥٥٢} بجاء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ٢٤٢-٢٤٣.

^{٥٥٣} المصدر نفسه. ص. ٢٤٩.

^{٥٥٤} المصدر نفسه. ص. ٢٥٤.

تأزمات الظروف الاجتماعية والسياسية والعاطفية على عاتقه، فقرر أن ينتحر. يقول السارد الذي انفصل عن شخصية

الراوي المشارك الصحفي ليتمكن من نقل ما حدث للراوي الذي كان يلتصق به قبل هذه اللحظة:

لم أكن متعبا. كنت أنزلق في بحر هادئ.. تحملني على ظهري موجة ناعمة وصوت

ناي عذب.

وقلت لنفسى: أهذه هي النهاية؟ ما أجملها! وكان الصوت يأتي من بعيد.

كان الصوت يكرر يا سيد!.. يا سيد!.. ولكنه راح يخفت وراح صوت الناي

يعلو.

وكانت الموجة تحملني بعيداً.

تترجح في بطنٍ وتهدهدني.. والناي يصحبنى بنغمته الشجية الطويلة إلى السلام

وإلى السكينة. ٥٥٥

فالصوت الذي يظهر من هذا المقطع السردى ليس صوت الراوي المشارك الصحفي، بل إنما هو صوت السارد الذي

كان يلتصق بشخصية الراوي المشارك، وانفصل الآن ليقوم بهذه العملية. فهو يراقبه عندما يحدث له هذا ويروي القصة

للقارئ بعد حدوثها.

وبجانب الراوي وبريجيت، اكتشف الباحث أن ألبرت من الذين لجأوا إلى الملاذ بالشرب بوصفه بديلاً لأحزانهم وآلامهم

وخيبات آمالهم. عندما حلت به تلك المأساة التي تتمثل في قتل طفله، فقد توازنه وبالتالي يئس من واقعه الذي يعيشه.

ومن هنا رأى أن البديل الوحيد في دفن أحزانه وآلامه هو الشرب، ومن ثمّ أدمن شرب الخمر. وتقول بريجيت عندما

تسترجع للراوي الصحفي ماضيها البعيد له عندما استبدت بها رغبة ملحة في أن تتكلم: "لم ألاحظ أنه بدأ يشرب أكثر

من المعتاد.. ٥٥٦"

٥٥٥ بماء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ٢٥٤.

٥٥٦ المصدر نفسه. ص. ١١٢.

ومع أنّ الإشارة السّابقة حدثت قبل حدوث مأساة قتل جنينه، إلاّ إنّها تعتبر بديلاً للحزن عند ألبرت. ولا يستبعد أنّ الدافع في هذه المرة يتمثّل في أنه بدأ يشعر بوطأة الغربة من أجل معاملة المواطنين له المليئة بالعصبية. ذلك لأنّه ارتكب جريمة الزواج بالمواطنة: بريجيت. فراحوا يعاملونه بدافع العصبية معاملة سيئة جداً، قبل أن ينفذوا ما دبروه. وصارت الخمر صاحبه ليل نهار بعد وقوع المأساة بدرجة أنه يشرب في البيت ويتظاهر بالقراءة. تروي بريجيت للراوي حالته قائلة: "...وألبرت هناك على مقعده في الركن، يشرب ويتظاهر أنه يقرأ."^{٥٥٧}

وقد جعل تأثير المأساة على ألبرت يترك عاداته لقراءة الشعر، تلك الممارسة التي كان يحبها كثيراً. فكان يقرأ لبريغيت الشعر والروايات الأوروبية والإفريقية. وتقول بريجيت في هذا الصدد: "ولم يكن هو وقتها يقرأ شعراً أو غيره فقط يجلس في البيت ويشرب."^{٥٥٨} ومن شدة وطأة المأساة عليه أنه أصبح لا يذهب إلى أيّ مكان. وربما سئم أصدقاءه الإفريقيون من التغيرات التي طرأت عليه أو التي يُظهرها، فلم يعد يزوره واحد منهم في بيته. وأصبح كلما "يفعله الآن هو أن يشرب حتى يسكر"^{٥٥٩} كما أنّ لأجل الشرب بدأ يسرق من زوجته ليديم كفايته. لاحظت ذلك زوجته ونصحته لكنه لم يسمع نصيحته واستمرّ فيما هو عليه. وفي النهاية رأّت بريجيت أنّ الحل الوحيد هو أن تتركه وتترك النمسا ففعلت ذلك.

يحوّل الباحث كاميرة مناقشته من الرواية الرابعة إلى الخامسة. لاحظ أنّ الشّخصيّة الوحيدة التي يظهر اعتماد المؤلّف هذا العنصر في وصف ملاذها في ليالي يحفّ بها الخوف والوحدة هي لبني. قد أصيبت لبني بخوف منذ صغرها، ربما لما في حياتها من ظروف اجتماعيّة قاسية تتمثّل في الشجارات الزوجيّة المتكررة بين والديها. وفي بداية الأمر كانت تلوذ بقراءة الكتب عندما يأتيها الخوف ليلاً وتقض مضجعها الوحدة. فكانت تقول في مونولوج ينم عن خطورة ما تعانیه: "وماذا

^{٥٥٧} بماء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ١١٦.

^{٥٥٨} المصدر نفسه. ص. ١١٧.

^{٥٥٩} المصدر نفسه. ص. ١١٧.

كانت ستفعل بنفسها في ليالي الوحدة والخوف لو لم تكن الكتب هناك؟^{٥٦٠}

ويبدو من الاقتباس السابق أنّ الكتب والقراءة التي أهدتها الدكتورة صفاء لبني هي طريقتها للهروب من العالم الذي يرهبها. كما أخذت بديل الحزن مرة أخرى في التفكير في الانتحار. يستبدّ بها هذا التفكير القوي في أن تقتل نفسها، إلا إنها أجبن من أن تنتحر على حدّ تعبيرها. وتقول في مونولوج يعبر عن أعمق ما في نفسها: "إذن لا حل سوى الانتحار أو أن أترك سالم.^{٥٦١} ولكنها تعرف أنها أجبن من أن تفعل هذا أو ذاك. ومن ذلك يبدو أنّ لبني تحزن كثيراً إذا فكّرت في احتمال أن يعرف سالم حقيقة أخبارها وأسرارها التي لا تواتيها الجرأة بأن تبوح له بها.

وفي الرواية السادسة لاحظ الباحث أنه عندما تأزمت الأحوال وتضافت الظروف الاجتماعية والسياسية والوظيفية على محمود عزمي يروح يبحث عن بديل أحزانه في الخمر وفي النساء. كان لماضي محمود أحداث مخزنة تجعله يسترجعها كثيراً بدرجة تجعله كمن يعيش في ذلك الماضي البعيد. ولذا تزوره وجوه الشخصيات التي تشارك في تلك الأحداث. كما تفرض وجودها عليه عندما كان في الصحراء مسافراً إلى السيوّة. فهناك وجه أبيه الذي أفلس في تجارته قبل أن يتحقق حلمه في الالتحاق بكلية الحقوق.

وهناك وجه نعمة السمراء حبيبة محمود التي فزت من البيت بلا سابق إنذار. وبجانب نعمة السمراء ووالده يوجد أخوه سليمان الذي سافر بعيداً عن مصر. ومع اشتياق محمود إليه إلا أنه لا يستطيع أن يلقاه. وأخيراً يأتي وجه زميل عمله طلعت الذي خانته أيام الثورة العربية. وإن بدأ يقول لنفسه ما ينبغي أن يفعل بتلك الوجوه، يسخر منه شيء في داخله. ويضيف محمود في هذا الصدد: "فأجري إلى الخمر والنساء مثلما كان حالي وأنا مراهق وشاب.^{٥٦٢}

وإضافة على ما سبق كان الخمر عند محمود مصدر فرحة واحتمال الوحدة في الواحة على حدّ تعبيره: "كنت أعول على

^{٥٦٠} بماء طاهر. ٢٠٠١م. نقطة النور. ص. ٩٠.

^{٥٦١} المصدر نفسه. ص. ١٢٢.

^{٥٦٢} بماء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ٤٢.

الويسكي لاحتمال الوحدة في هذه الواحة وأحضرت معي من القاهرة ذخيرة كافية من الصناديق.^{٥٦٣} ولما زادت أحزانه زاد الكمية التي يشرب من الخمر ليخفف الشرب عن وطأة الحزن كما قالت زوجته: "عاد يشرب كثيراً منذ حادثة المعبد..."^{٥٦٤} وتشير حادثة المعبد المذكورة في الاقتباس إلى كسر ساق إبراهيم الشاوش، خادم المأمور الخاص الذي عينته النظارة وصاحبه في البعثة إلى الواحة. وتزيد على هذا بقولها: "يشرب الخمر التي يجرمها دينه..."^{٥٦٥} كل هذه المقاطع السرديّة تؤكد كون محمود يلجأ إلى الخمر بوصفها بديلاً لأحزانه وآلامه ووحدته.

على أنّ البديل الذي لجأ إليه محمود لم يقتصر على الخمر والنساء. وجاوز ذلك إلى البديل الآخر: الانتحار.^{٥٦٦} حدث ذلك عندما يئس عن حالة فيونا، شقيقة زوجه كاثرين. معنى ذلك أنه عندما وقع في حب فيونا في المرة الأولى التي لقيها، وبدون معرفته، وتعرّف على تدهور صحتها واستسلم من تحسّن حالتها لأنّ الحشائش التي أرسل إليها الشيخ يحيى ومداداة زبيدة هي الأخرى أرسلها الشيخ، لم تغد فيونا، يئس.^{٥٦٧} كما يئس من الوحدة التي ستحلّ به إن لم يجدها أو إذا سبّب ذلك المرض موتها. وقد أغمى عليها مرات. كما أنه شاهد إغماءها مرة وظن أنها تموت.^{٥٦٨} ومن ثمّ حاول جاهداً أن يجد التوازن والسلام وطمأنينة النفس ولم يجد. ومن ثمّ كان مفهوماً أن تقوده كل تلك الظروف التي تحيط به إلى أن يلوذ ببديل الحزن في الانتحار. ويتمثّل انتحاره في هدمه لمعبد أم عبيدة. يقول السارد الذي انفصل عن شخصية محمود بعد أن التصق به قبل الحادثة:

أجري لكي أسقط على الأرض قبل أن أبلغه. أراه قبل السقوط يندفع نحوي،

يرتطم الحجر برأسي فأسقط ويجل نوم، لكي أضحو مرة أخرى أمد يدي إلى رأسي

ورقبتي فأحس اللزوجة وسخونة الدم وأمس الشظية الكبيرة المرشوقة في رقبتى..

^{٥٦٣} بماء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ٧٩.

^{٥٦٤} المصدر نفسه. ص. ١٤٧.

^{٥٦٥} المصدر نفسه. ص. ١٤٨.

^{٥٦٦} المصدر نفسه. ص. ٢٨٧.

^{٥٦٧} المصدر نفسه. ص. ٢٨٤.

^{٥٦٨} المصدر نفسه. ص. ٢٨٢.

أحاول انتزاعها بيدي الخائرة فلا أفلح.. لم يكن هناك ألم.. وتوهج فجأة نور في

داخلي، نعم، الآن يمكن أن أرى كل شيء!.. أن أفهم كل ما فاتني في الدنيا أن

أعرفه!.. أحاول أن أرفع رأسي فلا أستطيع.. يخبو النور وتحل هجمة السبات

الثقيل...^{٥٦٩}

ويبدو من هذا الاقتباس أنّ الساردَ يصف بديل الحزن لمحمود، والذي يتمثّل في الانتحار. ينتحر محمود في عملية هدم معبد أم عبيدة، ذلك المعبد الذي يراه أصل كل المشكلات والمصائب التي تحف به في السيوة، كما سبق أن أشيرَ في مكان آخر في هذه الدراسة. ورأى محمود حتمية تنفيذ قراره؛ إذ إنه هو الطريقة الوحيدة للخلاص من المصائب التي تحيط به في الواحة.

ومن المغتربين الذين لجأوا إلى أخذ الملاذ في بديل الحزن مليكة. لجأت هذه الشخصية إلى الانتحار عندما تأزمت الأحوال والظروف الاجتماعية الاعتقادية في مجتمعها البدائي، إن صح تفسير انتحارها. إذ لا يستبعد أن تكون مقتولة. لا يستبعد أن يكون قد قتلها إحدى الأجواد الذين يرون حتمية قتلها لإزالة المصائب التي حلّت بمجتمعهم - كما يتصوّرون - والتي تكون مليكة هي التي جلبت لهم تلك المصائب بأفعالها التي تناهت اعتقادهم وممارساتهم الاجتماعية والاعتقادية. ويشير شكوك القارئ الكلمة التي اعتمدها المؤلف في الإحبار: "قالوا"، الأمر الذي يؤكد صحّة كلا التفسيرين.

على أنّ ما يؤكّد ما ذهب إليه الباحث مونولوج من الشيخ يحيى الذي يقول: "في الطريق إلى بستاني كنت أفكر وأسأل نفسي أين الحقيقة؟ هل رشقت مليكة السكين في صدرها حقاً أم أنتم الذين أغمدتموه في قلبها لترفعوا، كما قال أجوادكم، دنس الغولة من الأرض؟"^{٥٧٠} أمّا الشيء الذي صرّح به المؤلّف في نص الرواية أنّها قتلت نفسها، كما أخبر الشيخ يحيى بذلك. ويقول الراوي في هذا الصدد: "أدارت السكين نحوها وأغمدته في صدرها وهي تلعن كل الرجال

^{٥٦٩} بماء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ٢٨٢.

^{٥٧٠} المصدر نفسه. ص. ١٨٥.

والنساء ونافورة الدم تندفع منها نحو أمها.^{٥٧١} فهذا المقطع السردي إشارة نصيية واضحة إلى أنها أنهت حياتها لأنها لم تعد تحمل الآلام والهموم والوحدة التي تحف بها في مجتمعها البدائي.

وبجانب مليكة كان خالها الشيخ يحيى من الذين وجدوا ملاذاً في أخذ بديل لأحزانهم وآلامهم ووجدتهم. وكان بديل حزنه يختلف عن البديلين اللذين تعرّف عليهما القارئ من خلال المناقشة التي سبقت. ويتمثل هذا البديل في المرة الأولى التي استسلم ويئس من مجتمعه ومحيطه - كما أشير إلى ذلك في المطلب الثاني - في الهجرة والغربة الاختيارية في الصحراء. ويقول في هذا الصدد: "...لكني ركبت حماري ولم أرجع إلى داري ولا إلى قومي، بل تقدمت نحو الصحراء المتاهة عازماً ألا أعود."^{٥٧٢} ويسترجع ذكرى هذا البديل تارة فيقول: "هجرت كل شيء ورائي مغاضبا قومي دون أن أعرف لنفسي هدفاً ولا مستقراً. كم شهراً بقيت في الفلاة أو كم سنة؟ كثيراً ما أجهدت ذهني لأحصي تلك الشهور أو السنين فلم أفر بشيء."^{٥٧٣}

أمّا في المرة الثانية التي استسلم من مجتمعه والظروف الاجتماعية الاعتقادية التي تحيط بمليكة، فيتمثل بديل حزنه في العزلة والخلوة والقسم بعدم الخروج حتى تأتيه المنية هناك، إذ إنه لم ير من يستحق صحبته في مجتمعه البدائي. ويقول في هذا الصدد: "سأعترلكم إلى الأبد. لم تعد بي قوة لأخرج إلى الصحراء كما فعلت في شبابي. سألزم الحجرة الصغيرة في حديقتي، ولن أرى منكم أحداً."^{٥٧٤} ويشير هذا المقطع السردي إشارة واضحة إلى اختيار الشيخ يحيى بديل الحزن في العزلة التامة والخلوة الدائمة إلى أن تأتيه المنية. فقد خابت آماله ويئس من تحسن الأحوال والظروف الاجتماعية والسياسية والاعتقادية في مجتمعه البدائي.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ هناك علاقة ارتباطية وثيقة بين العناصر التي نوقشت في هذا المبحث. فلاغتراب عند

^{٥٧١} بماء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ١٨٥.

^{٥٧٢} المصدر نفسه. ص. ١٨٢.

^{٥٧٣} المصدر نفسه. ص. ٥٩-٦٠.

^{٥٧٤} المصدر نفسه. ص. ١٨٥.

الشخصيات يبدأ بإحباط الأمل، فينتج اليأس، ثم ينتشر الروح العدمية، نتيجة لذلك، في أقوال الشخصيات وأفعالها وتفكيرها ثم في النهاية تبحث عن بديل حزنها، حيث إنه لا يحتمل. ومن هنا يلاحظ أنّ الروايات تشترك، كلها، في تناول ظاهرة الاغتراب بوصفها بُعداً داخلياً نفسياً يتحكّم على تفكير الشخصيات وأفعالها وانفعالها وسلوكها. فإحباط الأمل الذي يُشعر الشخصية بالهوان والضآلة يظهر في الروايات كلها. وفي الرواية الأولى كان إحباط الأمل في الحب والدراسة هما اللذان ولّدا العجز عن التفكير وتدهور علاقة الراوي المشارك بالجامعة.^{٥٧٥}

ويبدو أنّ هناك تشابهاً بين الرواية الأولى والثانية في تناول الكاتب لظاهرة إحباط الأمل. لكن تختلف الروايتان في كون الراوي في الأولى طالب في الجامعة، في حين أنّ الراوي في الثانية تخرّج. وأنه أحبّ امرأة، بينما كان راو الرواية الأولى أحبّ فتاة. وقد تنوع تناول في الرواية الثالثة، حيث لم يكن للأمر ارتباط بالدراسة. وكان الحبّ من طرف واحد فقط وتحوّل إلى كراهية لشدة وطأة إحباط الأمل. ويتعمّق حضور إحباط الأمل في الرواية الرابعة ليشمل شخصيات عدة: الراوي، وبريجيت، وإبراهيم، ويوسف وألبرت.^{٥٧٦}

وإذا كان إحباط الأمل يتعلق بالحب المخذول في الشخصيات الثلاثة الأولى، فإنّ ظهوره عند يوسف يتخذ شكل الجانب الثاني الذي اتخذ عند راوي الرواية الأولى: الانفصال عن الدراسة. ثم تُبرز الرواية الخامسة إحباط الأمل رباعي الجوانب: جانب الباشكاتب، وفوزية، حفيدته، وسالم، حفيده، ولبنى، حبيبة سالم. ولئن تجلّى إحباط الأمل في فشل الحبّ بين سالم ولبنى، وانفصال كلّ منهما عن الدراسة، لكنه يختلف عند الباشكاتب. إذ إنه يتجلّى في محنة ابنه وحفيدته، فوزية، وحفيده، سالم.

وكان إحباط أمل فوزية يتجسّد في تغيير زوجها استجابة لضغط العمل والغلاء الساحق الذي يجعل راتبه يتبخر قبل نهاية الشهر. والحب، مرة أخرى، هو مصدر إحباط الأمل في الرواية السادسة. ولعل هذا الذي حمّل إدوار الخراط على

^{٥٧٥} بهاء طاهر. ١٩٨٥م. شرق النخيل. ص. ٦، ٩، ١١، ٦٦.

^{٥٧٦} بهاء طاهر. ١٩٨٥م. شرق النخيل. ص. ٦، ٩، ١١، ٦٦. و: بهاء طاهر. ١٩٨٥م. قلت ضحى. ص. ٨٥. و: بهاء طاهر. ١٩٩١م. خالتي ضفية والدير. ص. ٥٥. و: بهاء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ٢٧-٢٨، ٣٦، ٧٢، ٧٦، ١٠٨، ١١٠، ١١٥، ١٧٣-١٧٤، ١٨٢-١٨٣.

وصف الحب - الذي لا يعني العلاقة الروحية أو النفسية بين شخصيتين بقدر ما يعني علاقة حميمة بينهما - في أعمال بهاء بأنه فادح الثمن.^{٥٧٧} وتتفق شخصيتا فوزية، في الرواية الخامسة، وكاثرين، في الرواية السادسة في أنّ إحباط الأمل عندهما يتمثل في زواجهما. أضف إلى ذلك أنّ إحباط أمل الشيخ يحيى في الرواية السادسة يتمثل في عجزه أن يعقد الصلح بين عشيرته وعشيرة الشريكين المتخاصمتين. ثم في موت مليكة الذي يجسّد انقطاع وفقدان العلاقة الحميمة بينهما.^{٥٧٨}

وبالنسبة لليأس، يبدو أنه لا يوجد فرق في تناوله في الروايات. ولعل اختلاف تناول يظهر في عرض مصدر يأس الشخصية بعد إحباط أملها. فيتمثل هذا المصدر في الرواية الأولى في معرفة الراوي المأساة التي حلت بأسرته. وأنّ الضعف النفسي الذي جلب الخيانة بين الصديقين ورفض ضحى عرض الراوي للزواج منها هما المصدران ليأس الراوي المشارك في الرواية الثانية. ثم تشابه الرواية الثانية مع الثالثة في تمثيل رفض المحبوب بوصف ذلك مصدراً لليأس. أمّا في الرواية الرابعة فقد حاول الراوي كثيراً أن يتعرف على مصدر انتهاء الحب الذي فشل لكن محاولته باءت بالفشل. وهكذا إبراهيم. لكن يختلف الأمر بالنسبة لبريجيت، إذ إنّ العنصرية هي المصدر ليأسها. وكانت المشاركة في مظاهرة الطلاب ضد السادات هي مصدر يأس يوسف في الرواية الرابعة.^{٥٧٩}

ولقد كان اختزال التوازن في العقل هو مصدر يأس سالم ولبنى في الرواية الخامسة. وتختلف هذه الرواية عن التي سبقتها في أنّ شخصية من الشخصيات التي تبرز فيها إحباط الأمل محتفي منها اليأس، كما يتمثل هذا في شخصية الباشكاتب. أمّا أساس يأس فوزية فذلك يتمثل في تغير معاملة زوجها تجاهها. الأمر الذي ينتج تغير معاملتها هي الأخرى تجاه والدها بعد بيع جانب من بيت جدّها. ويتحلّى مصدر يأس لبنى في معايشة اختزال توازن عقل سالم. ثم إنّ مصدر يأس محمود هو فقد محبوبتين. كما أنّ حالة الشيخ يحيى تشابه مع حالة محمود في أنّ كليهما يفقد شخصية

^{٥٧٧} بهاء طاهر. ١٩٨٥م. قالت ضحى. ص. ٩.

^{٥٧٨} بهاء طاهر. ٢٠٠١م. نقطة النور. ص. ٩٩، ١٨٧. و: بهاء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ٢٦-٢٧، ١٨٥.

^{٥٧٩} بهاء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ٢٦-٢٩، ٧٦، ١١٥.

حميمة عنده. ثم يختلف الأول عن الثاني في فقد فرصة التصالح بين عشيرتي مجتمعه. وتنفرد الرواية السادسة في تمثيل مصدر اليأس الذي ينبع من ظلم المجتمع وقهره على أفرادها، كما يتجلى هذا في يأس مليكة. ثم إنّ معايشة الكراهية من مايكل هي التي تمثل منبع يأس كاثرين.^{٥٨٠}

على أنّ رمز الروح العدمية يكاد يؤكّد حضوره في الروايات كلّها لولا عدم بروزه في الرواية الثالثة. حيث يبدو أنه يختفي في شخصية صفية، كما سيُشار إليه عند مقارنة عدد الاقتباسات المستشهد بها في العناصر المشكّلة للاغتراب. وليس هي الشخصية الوحيدة فحسب، بل يختفي الروح العدمية في شخصية الباشكاتب. ويختفي كذلك في فوزية. ثم عند الرجوع إلى الرواية الرابعة يلاحظ أنه لا يتجلى في شخصية إبراهيم، ويوسف. أمّا ما عدا هذه الشخصيات، فيظهر هذا العنصر في سائر الشخصيات. وتتفق الشخصيات هنا في أنّها ترى، نتيجة لإحباط أملها أو آملها الذي ينتج اليأس في داخلها، اللافائدة واللاأهمية كل شيء.^{٥٨١}

ويمكن الإقدام بالقول بأنّ بديل الحزن يبرز في الروايات كلها. يتجلى في أحسن حاله في إدمان شرب الخمر أو البيرة لاحتمال وطأة الاغتراب. يتمثل هذا في الرواية الأولى. ويتجسّد في الارتقاء في أحضان المومسات، ولعب الشطرنج ثم الطاولة في الرواية الثانية. وأمّا في أسوأ حاله فإنه يجزّ الشخصية إلى اختزال توازن العقل أو الانتحار أو الموت. وتختص الرواية الثالثة في تمثيل الموت بوصفه منبعاً للراحة للشخصية المغترية: صفية. أما الانتحار فذلك عنصر تتفق الرواية الرابعة والسادسة في عرضه بوصفه بديلاً للحزن المتراكم نتيجة الاغتراب. في حين أنّ اختزال توازن العقل وما يوازيه من مرض نفسي فذاتك يقتصر ظهورهما في الرواية الخامسة.^{٥٨١}

وأيا كان الأمر، إنّ الاغتراب في الروايات المدروسة يتخذ شكلين: إما اغتراب في الوطن وبين الأهل، وإما خارج الوطن وبعيداً عن الأهل والجذور. ويبدو أنّ الشكل الأول أكثر تجلياً، حيث يظهر في أربع روايات: ما عدا الرابعة والسادسة.

^{٥٨٠} بهاء طاهر. ٢٠٠١م. نقطة النور. ص. ٩٩، ١٨٧، و: بهاء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ٢٦-٢٧، ١٨٥.

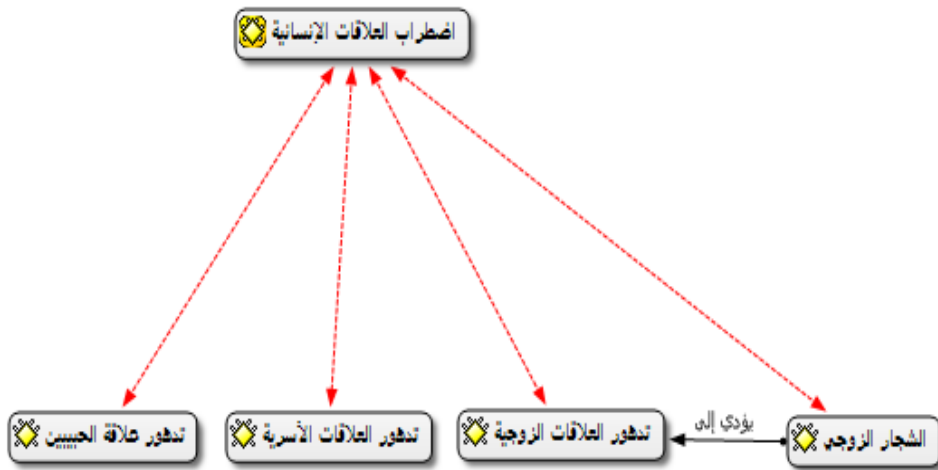
^{٥٨١} بهاء طاهر. ١٩٨٥م. شرق النخيل. ص. ٩. و: بهاء طاهر. ١٩٨٥م. قالت ضحى. ص. ٤١. و: بهاء طاهر. ١٩٩١م. خالتي صفية والدير. ص.

١٣٦. و: بهاء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ٢٥٤. و: بهاء طاهر. ٢٠٠١م. نقطة النور. ص. ١٥٤-١٥٣.

ومن ثمّ يحضر الشكل الثاني في الروايتين المستثنتين. وتضيف الرّواية الرّابعة والسادسة تصوير الذوات المغتربة العربية والأجنبية، وبالأخص الأوروبية. أمّا الروايات الأخرى فقد اتفقت في تصوير آلام المغترب العربي وهمومه إما في وطنه وبين أهله، وإما بعيداً عن منبعه وجذوره حيث وطأة الاغتراب والمنفى أشد تأثيراً.^{٥٨٢}

المبحث الثاني: اضطراب العلاقات الإنسانية

يتمثّل المحور الثاني في: اضطراب العلاقات الإنسانية، أو ما سماه بيتروف انخيار العلاقات (الإنسانية).^{٥٨٣} وقد أظهرت نتيجة التحليل أنّ هذا المحور مكوّن من عناصر أربعة تتمثّل في: الشجار الزوجي، وتدهور العلاقات الزوجية، وتدهور العلاقات الأسرية، وفي النهاية تدهور علاقة الحبيين. وتمثّل هذه العناصر الأربعة لاضطراب العلاقات الإنسانية مطالب هذا المبحث. والرسم التوضيحي الآتي يزيد وضوحاً لما سبقت الإشارة إليه:



الرسم التوضيحي ٩: اضطراب العلاقات الإنسانية ومكوّناتها

يتبيّن في الرسم التوضيحي ٩ أنّ محور اضطراب العلاقات الإنسانية يتكوّن من عناصر أربعة، وهي: الشجار الزوجي، وتدهور العلاقات الزوجية، وتدهور العلاقات الأسرية، وتدهور علاقة الحبيين. وهذا معنى الأسهم التي تقوم من المحور إلى العناصر. ثمّ إنّ السهم من عنصر الشجار الزوجي إلى تدهور العلاقات الزوجية يشير إلى أنّ الأول يُنتج الثاني. وما

^{٥٨٢} يمكن الرجوع إلى المناقشات السابقة في هذا المبحث.

^{٥٨٣} س. بيتروف. ٢٠١٢م. الواقعية النقدية في الأدب. ص. ١٤٩.

دام أنه لا يوجد أيّ سهم بين العناصر الثلاثة الأخرى، فمعنى ذلك إنه لا علة بينها.

وبعد استقصاء الروايات المدروسة لاحظ الباحث أنّ الشجَرَ الزوجي يتجلى في الروايات كلها ما عدا الرواية الثالثة. ويبدو عنصر تدهور العلاقات الزوجية شائعاً في ثلاث روايات: الثانية والرابعة والسادسة. كما يظهر تدهور العلاقات الأسرية في أربع روايات: الرواية الأولى والثانية والرابعة والخامسة. وفي النهاية يتمثل عنصر تدهور علاقة الحبيين في الروايات كلها ما عدا الرواية الثالثة.

وتُظهر المقارنة بين الروايات فيما يتعلق بكثرة الاقتباسات المشيرة إلى رمز أو بعد من الأبعاد المكوّنة لاضطراب العلاقات الإنسانيّة أنّ تدهور العلاقات الأسرية يتفوق على سائر الرموز والأبعاد؛ حيث تجلّى في خمس روايات ٣٥ مرة. ويأتي هذا العنصر تدهور العلاقات الزوجية. يبرز ٢١ مرة في أربع روايات فقط: الثانية والرابعة والخامسة والسادسة. كما ظهر في الرواية الخامسة في أكثر من شخصيتين. ثم يأتي بعدهما في المرتبة الثالثة رمز الشجار الزوجي وتدهور علاقة الحبيين. يظهر ١٧ مرة في خمس روايات، حيث تتخلّى الرواية الثالثة في تمثله. ثم يأتي في المرتبة الأخيرة رمز تدهور علاقة الحبيين. يظهر ١٥ مرة في خمس روايات أيضاً مثل رمز الشجار الزوجي. وإضافة إلى ذلك قد ظهر هذا الرمز في أكثر من شخصيتين في الرواية الرابعة. ويأتي جدول المقارنة لتوضيح ما سبق شرحه:

الجدول ٤: محور اضطراب العلاقات الإنسانيّة

	P 6	P 5	P 4	P 3	P 2	P 1	الروايات الرموز
17	3	5	6	0	2	1	الشجار الزوجي
35	0	5	5	17	6	2	تدهور العلاقات الأسرية
21	12	4	4	0	1	0	تدهور العلاقات الزوجية
15	1	2	5	0	6	1	تدهور علاقة الحبيين
88	16	16	20	17	15	4	المجموع الكلي للعناصر في الروايات

مؤشرات الجدول:

P1 الرواية الأولى: شرق النخيل

P2 الرواية الثانية: قالت ضحى

P3 الرواية الثالثة: خالتي صفية والدير

P4 الرواية الرابعة: الحب في المنفى

P5 الرواية الخامسة: نقطة النور

P6 الرواية السادسة: واحة الغروب

يبدو على سبيل التعليل، أنّ سبب كثرة الاقتباسات التي تشير إلى تدهور العلاقات الأسرية في الرواية الثالثة هو القرية الصغيرة الصعيدية. إنّ أفراد هذه القرية ترتبط ببعضها فكلهم أبناء عمومة أو خنولة من قريب أو بعيد.^{٥٨٤} كما كان جدّهم الأعلى واحد. وقد تدهورت تلك العلاقات التي منها: علاقة البك بحربي، وعلاقة صفية بحربي، وعلاقة صفية بأفراد أسرة والد الراوي الطفل، والعلاقة الطيبة بين البك وأفراد القرية. ثمّ إنّ ما سبب كثرة الاقتباسات في الظاهرة الثالثة في الرواية هو وجود امرأة تزوجت مرتين: كاثرين، ولم يكن الزواج سعيداً في كلتا الحالتين.

وإنّ سبب عدم ظهور ظاهرة تدهور العلاقات الزوجية في الرواية الثالثة، يعود إلى الفرق بين الظاهرة والتي سبقتها. يعني تدهور العلاقات الزوجية بعد تفسُّخها. في حين أنّ تدهور العلاقات الأسرية هو تفسُّخ العلاقات بين أفراد أسرة معينة، مثلاً بين الإخوة والأخوات أو بين الأب وأولاده، وما يشبه ذلك. لذا، فمع أنّ ظاهرة تدهور العلاقات الأسرية جاءت أكثر بروزاً في الرواية الثالثة، إلا أنّ ظاهرة تدهور العلاقات الزوجية لم تظهر في الرواية نفسها لأنه لا يوجد زواج يعاني من مشكلات زوجية في الرواية. فزواج والدة الراوي الصبي، زواج سعيد. وكذلك زواج صفية مع البك، زواج سعيد؛ حيث قال عنه الراوي إنّ صفية أحبت زوجها، وكادت تؤلِّمه.^{٥٨٥} ولا يوجد تفصيل عن زواج أخوات الراوي في نهاية الرواية. وما قيل عن عدم ظهور تدهور العلاقات الزوجية، يقال عن عدم ظهور الشجار الزوجي. والسبب في خلو الرواية من الإشارة إلى ظهور تدهور علاقة الحبيين هو عدم وجود حبيين يعترفان بجهما.

^{٥٨٤} بماء طاهر. ١٩٩١م. خالتي صفية والدير. ص. ٣٧-٣٨، ٤٥.

^{٥٨٥} المصدر نفسه. ص. ٥٨.

ويلاحظ أنّ الرواية الأولى هي التي سجّلت أدنى نسبة للاقتباسات التي تحيل إلى اضطراب العلاقات الإنسانية. ومن أسباب ذلك أنّ الرواية بداية التجربة الروائية عند الروائي. "وبرغم الرسالة التي تحملها الرواية وأهميتها إلا إنها لا تلجأ إلى الإطالة والثثرة بل يعتمد أسلوبها على التركيز الشديد واختيار كل كلمة."^{٥٨٦} ثم إنّ السبب في عدم ظهور أي اقتباس في عنصر تدهور العلاقات الأسرية في الرواية السادسة هو اهتمام الرواية بتناول عنصر تدهور العلاقات الزوجية. كما أنّ الرواية، من جانب تصوير الشخصية، ركزت كثيراً على الاغتراب داخل الوطن. ولذا جاءت الاقتباسات التي تشير إلى الاغتراب في الدرجة الثانية في الكثرة بعد الرواية الرابعة في المبحث الأول لهذا الفصل.^{٥٨٧}

ويبدو أنّ رؤية المؤلف رؤية سوداوية، إذ كثرت الإشارات إلى اضطراب العلاقات الزوجية والأسرية التي تعتبر دعائم كل مجتمع سليم. وما يندعم ذلك هو كثرة الإشارات إلى الموت في الروايتين. أيّ إنّ بهاء يصرّح بتلاشي العلاقات الأسرية واختفائها في المجتمع. ومن ثمّ تدل النتيجة على أنّ الرواية الثالثة رواية تدهور العلاقات الأسرية، في حين أنّ الرواية السادسة رواية تدهور العلاقات الزوجية. وبذلك يدل تصوير الشخصيات على انتماء بهاء ظاهر إلى الواقعية النقدية. ويرجع سبب ذلك إلى أنّ تدهور العلاقات الأسرية وتدهور العلاقات الزوجية عنصران من العناصر التي تكوّن اضطراب العلاقات الإنسانية، والذي أشير إلى كونه عنصراً من عناصر الواقعية النقدية.^{٥٨٨}

المطلب الأول: الشجار الزوجي

أشار بهاء إلى أنّ العلاقات الإنسانية قد اضطرت وتهدمت أهراماتها المشيدة بصعوبة. ويتمثل هذا في أعمال الشخصيات وأفكارها المختلفة، تلك الشخصيات التي قام بتصوير نفوسها. كما يبدو ذلك في صراع وتوتر وقلق مستمر بينها. فيبدأ اضطراب العلاقات الإنسانية بالشجار الزوجي. يتجلى الشجار الزوجي بوصفه ظاهرة تصوّر الأبعاد

^{٥٨٦} بهاء طاهر. ١٩٨٥م. شرق النخيل. ص. الغلاف الخلفي للرواية.

^{٥٨٧} ينظر الجدول ٣: محور الاغتراب.

^{٥٨٨} س. بيتروف. ٢٠١٢م. الواقعية النقدية في الأدب. ص. ١٤٩. و: عبير سلامة. ٢٠١٣م. "مدخل إلى عالم بهاء طاهر القصصي". ص. ٣.

النفسية للشخصيات في الرواية الأولى في شخصيتي والد الراوي وأمه. والذي يسببه أنّ الأب يفعل ما تكرهه الأم: يتاجر بالربا. كانت الأم فيما يبدو للباحث شخصية متدينة؛ لذا، ترى أنّ أفعاله منافية للتعاليم الإسلامية. فهذا مصدر كرهها لزوجها. وفي هذا الصدد يقول الراوي: "سمعتها مرة تقول له يستر الله عليك. هذا المال جمر نأكله في الدنيا وفي الآخرة. لا خير فيه. أخاف على أولادي."^{٥٨٩} ومن ثمّ تعطلت العلاقة بين الزوج والزوجة.

ولعلّ أذى فساد العلاقة بينهما إلى فساد علاقة الأبوة الحنونة بين الأب والابن: الراوي، إذ تعودّ على شتمه. يقول الراوي المشارك: "قال وهو يتشمم نجحت؟ فضحكت. أعاد سؤاله غاضبا وهو يحمن إجابتي فقلت وأنا أضحك لا. قال ولماذا تضحك يا كلب؟ ما الذي يضحكك؟"^{٥٩٠} كما تعودّ على أن ينهر ويشتم الأم. ويقول الراوي المشارك: "وكانت أمي تسكت حين ينهرها أبي ويشتمها."^{٥٩١} فيبدو مما سبق أنها صبرت وقبلت الزوج على حاله ربما لأجل الأولاد الذين أنجباهم.

وتظهر هذه الظاهرة في الرواية الثانية بين والد الراوي ووالدته أيضاً كما حدث في الرواية الأولى. كانت صفاتهما تشكّل ما يعرف بالثنائية الضدية: binary opposition. وهي الاعتقاد بأنّ "كل شيء في الوجود يحمل معه نقيضه".^{٥٩٢} فقد كانت الأم ودیعة جداً في حين كان الأب قاسياً جداً. وكونها ودیعة جعلها تقوم بالأعمال البيتية اليومية للزوج وللأولاد. ويقول الراوي المشارك في هذا الصدد: "...تصحو مع الفجر، تعد لأبي الحمام، وتجهز له الفطور وتكوي ثيابه التي سينزل بها وتفعل بعد ذلك نفس الشيء لي ولأختي. لكن أبي كان دائماً ومنذ الصباح يجد سببا للشجار ولتأنيبها على تقصير من نوع ما.. كان فاترا أكثر مما يجب، البيض لم يسلق جيداً، أي شيء من أي نوع، وحين يبدأ لا يكف عن الإهانة والسباب حتى يخرج من البيت. وكانت أمي لا ترد..."^{٥٩٣}

^{٥٨٩} بهاء طاهر. ١٩٨٥م. شرق النخيل. ص. ٣٥.

^{٥٩٠} المصدر نفسه. ص. ٦.

^{٥٩١} المصدر نفسه. ص. ٣٥ و ٣٦.

^{٥٩٢} سمر الديوب. ٢٠٠٩م. الثنائيات الضدية: دراسات في الشعر العربي القاسم. وزارة الثقافة - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب. ص. ٩.

^{٥٩٣} بهاء طاهر. ١٩٨٥م. قالت ضحى. ص. ٣٨.

ولم يكن لدى والده الراوي أحدًا تشتكي إليه إلا دجاجات وكتاكت تريها. كانت تحكي للكتاكت ما يحدث لها في بيت زوجها: كل الإهانات التي يلقي إليها زوجها. وتقول: "ومع ذلك فأنا لم أفعل شيئاً أبداً. والله أبداً."^{٥٩٤} صبرت حتى انتقلت إلى جوار ربما. أماتها التعب والإعياء وهي ما زالت صغيرة السن. كما يقول الراوي في هذا الصدد: "هدّها عمل البيت وهدّها القهر."^{٥٩٥} فرحلت صامتة؛ بدون شكوى. وتعاقت على الأب أنواع مختلفة من الأمراض بعد وفاة الأم حتى فاضت روحه.^{٥٩٦}

على أنّ عنصر الشجار الزوجي اختفى في الرواية الثالثة؛ ويرجع سبب ذلك ربما لاحترام والده الراوي الطفل والده، أو بالأحرى احترام كل منهما الآخر. ويتجلّى الشجار الزوجي في الرواية الرابعة بين الراوي ومنار. وقد حاول الراوي جاهداً أن يعثر على بذرة الخطأ التي سببت الشجارات والإهانات بينهما بعد أن كانا - في أوقات ولحظات معينة في الماضي البعيد، حبيين - والتي ولدت اضطراب وتهدم علاقتهما. إلا إنّ محاولته فشلت. من هذه الشجارات أنّها اتهمته بأنه يعاني من عقدة الخواجة في أولى رحلتها إلى أوروبا. وذلك عندما لاحظت أنه يتعامل مع الأوروبيين بتهذيب مبالغ. وسألها إن لاحظت أنه يتعامل مع الناس بطريقة نفسها حتى في مصر؟ هزت رأسها وقالت إنّها لاحظت أنّ الجرعة هنا أكثر من اللازم. وهمّ بالرد عليها لكنه تراجع عن ذلك وقال: "ربما يكون الحق معك."^{٥٩٧}

ومن ذلك ما يرويهِ الراوي الصحفي المشارك في إحدى استرجاعاته السردية الكثيرة، عند محاولته للبحث عن بذرة الخطأ المذكورة آنفاً:

تتهمني مثلاً أنني أدلل الطفلين ومع ذلك نشعر بالغضب إذا ما حاولت أن أعاقب أحدهما وتتصدى للدفاع عنه. ظل العقاب خفياً مقصوراً عليها ويأتي عادة بعد أن نخرج للنزهة في يوم الجمعة. اعتادت أن تكتشف باستمرار خطأ ارتكبه أحدهما أو ارتكباه معاً: نوع من قلة الأدب كما كانت تقول، عقابه أن تحرمهما من المصروف

^{٥٩٤} بماء طاهر. ١٩٨٥م. قالت ضحى. ص. ٣٨.

^{٥٩٥} المصدر نفسه. والصفحة نفسها.

^{٥٩٦} المصدر نفسه. ص. ٣٩.

^{٥٩٧} بماء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ٩.

أو من زيارة الأصدقاء والأقارب. وحين كانت تراني ألعب الشطرنج مع خالد تهمني بأني أعطله عن الدراسة، وإذا حملت هنادى وأخذت ألف بما هي تضحك وتقول: إن هذه اللعبة هي السبب في أن بطنها كان يوجعها في الأسبوع الماضي. ولما لاحظت أن خالد يحب الشعر وأني أشجعه على القراءة، قالت لا داعي لأن يخيب الولد وهو نابغ في الرياضة...^{٥٩٨}

ومن الأسف الشديد أنّ هذه الشجارات قادتني إلى التمسك بالطلاق ربما بوصفه طريقة لإنهاء الشجارات والإهانات التي بدأت تنشب بينهما حتى يجدا السلام وطمأنينة النفس. ويرى إبراهيم المحلاوي أنّ المشكلة بين الراوي المشارك ومنار هي أنّهما كانا يبحثان عن حب كامل ومستحيل. فيقول في هذا الصدد: "ربما كنتما، أقصد رأيي أنك أنت ومنار كنتما تبحثان عن حب كامل ومستحيل في هذه الدنيا، لهذا كنتما تتشاجران لأتفه خيبة أمل تبعدكما عن هذا الكمال المستحيل".^{٥٩٩} وكان إبراهيم يبادل الراوي الرأي أثناء التقائهما في المؤتمر الصحفي الذي ألقى ببريجيت فيه، بعد غياب سنوات طويلة. وكانا يبحثان الماضي البعيد الميّت، لأنهما كانا موظفين في الشركة الصحفية نفسها. لكن مع أنّ رأيه يمكن أن يكون هو بذرة الخطأ التي يبحث عنها الراوي، لكنه لا يرى رأي زميله رأياً. ومن مشاحنتهما أنّها كانت تشكو عن كون العقد الذي اشتراه لها هدية من أحد الأسفار بلياً، وكونه هو الوحيد الذي عندها. بينما عند صاحباتها أطقم نفيس يناسب أزيائهن. تقول مبرمة في هذا الصدد:

أظن أن كل صاحباتي سئمن من رأيي بهذا العقد. كل واحدة عندها أطقم من الجواهر تناسب أزيائها وأثلاً لا شيء عندي غير هذا العقد. أفلتت مني العبارة دون قصد وأنا أظفر: لم ينج من هذا الانفتاح أحد.. هل تعمدت هي أن تتكلم عن العقد أو هل تعمدت أن أذكر الانفتاح؟ لا أظن. ولكنها التفتت نحوي فجأة بعينين محتقتين وقالت بصوت خافت وشفقتين مرتعشتين لا تتكلم عن الانفتاح من فضلك ولا تتخذ هذه المواقف السامية. أنت.. أنت شخصياً أول الانفتاحيين ومن قبل أي انفتاح. لم أكن أنا التي طلبت السيارة المرسيديس ولا هذه الشقة في جاردن سيتي. كنت قانعة ببيتنا الصغير في الجزيرة ولم أطلب شيئاً. قلت ولكني كنت أحاول أن أسعدك يا منار أنت والأولاد. تعرفين أنني دفعت كل ما أملك من أجل

^{٥٩٨} بماء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ١١.

^{٥٩٩} المصدر نفسه. ص. ٢٧.

السيارة والشقة. هل سرقت لكي أفعل هذا؟^{٦٠٠}

ويشير لفظ العقد هنا إلى أيام عبد الناصر، كما أنّ الانفتاح إشارة إلى ملك أنور السادات. وقد سبق القول بأنها تعتبر عبد الناصر خصما شخصيا لها. ذلك لأنّ وضعها في الصحيفة قد جُمد لسبب زوجها المتشبه بالعقائد الناصرية. أضف إلى ذلك أنّ باب المرأة الذي تكتب فيه قد اختزلوا إلى ربع حجمه.^{٦٠١} ويبدو من الاقتباس السابق أنّ الزوجين لا يصبران مع بعضهما البعض: بيد أنّ الشجار لأتفه الأسباب. كما أنّ الفتور واضح مما يتبادلانه الزوجان. فعندما يقول واحد منهما شيئا ضد الآخر عفوا أو عمدا، يشعر الآخر بأن ما صدر من في صديقه عمدا، وبالتالي عليه أن يردّ، والسكوت عار لا ينبغي تحمّله.

ويظهر هذا العنصر في الرواية الخامسة بين الدكتورة صفاء والدكتور شوكت، في جانب، وبين فراج وفوزية في جانب آخر. أمّا من جانب الدكتور شوكت والدكتورة، صفاء فقد لاحظ الباحث أنّ الراوي الغائب قد نقل إلى القارئ، من خلال ابنتهما لبني، مشاحناتهما والتي أدت إلى وقوع الطلاق بينهما. ومصدر هذه الشجارات هو الخيانة. خانت زوجها بدعوى أنه لا يؤدي حقه في الفراش كما ينبغي. وهو الآخر يفعل أشياء لا تتماشى مع الرجل المتزوج المحترم. وهذا هو الفارق بين الشجار الزوجي في هذه الرواية والرواية الرابعة وسائر الروايات. أي إنّ الشجار الزوجي فيهما يؤدي إلى طلاق بين الزوجين. ويلاحظ أيضاً أنّ الشجار الزوجي بين فوزية وفراج لم يؤدي إلى الطلاق. ومع أنّ مصدر الطلاق في الرواية الرابعة صعب التأكد عليه، إلا إنّ مصدر الطلاق هنا هو عدم استطاعة الزوج أن يشبع غزيرة الزوجة الجنسية البيولوجية.^{٦٠٢}

ومن تلك المشاهدات ما يرويها الراوي بضمير الغائب: "تذكر أمها وقد انقلبت سحنتها الجميلة وتشوه وجهها وهي تصرخ "فلقتنا بالإمبريالية والبروليتاريا! لماذا لا تعالج مريضاتك بجانا يا دكتور شوكت؟ لماذا لا تفعل مثل الدكتور شفايتز،

^{٦٠٠} بجاء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ٤١.

^{٦٠١} المصدر نفسه. ص. ٢٨.

^{٦٠٢} بجاء طاهر. ٢٠٠١م. نقطة النور. ص. ١٢٠.

تذهب إلى غابات إفريقيا وترجنا؟^{٦٠٣} ويبدو أنّ الزوجة تتهم الزوج بمساعدة المرضى الفقراء "البروليتاريا"، وعدم التضحية منه لأجل المرضى المساكين في إفريقيا. واستمر الراوي بنقل ما تستطيع ذاكرة لبنى ترده عن تلك المشاهدات بين والديها: "ولكنها تذكر مع ذلك رعبها حين كانت تلك الألفاظ التي لا تفهمها تصل إلى سمعها: الإمبريالية.. الدكتور شفائتزر.. والنرجسية، تلك الكلمة التي كان أبوها يكررها دائما في المشاجرات بصوته الرفيع الحاد، وفي وسط تلك الألفاظ كلها تسمع اسمها على لسان أبيها وأمها." ^{٦٠٤} ولا يستبعد أنّ كلاً من الزوجين سئم من الآخر. وأرادا أن يفترقا وأن ينهيا العلاقة بينهما بالطلاق. لكن ما يؤجلهما هو ابنتهما لبنى التي ما زالت صغيرة جداً. فباعترار الحالة التي تجد نفسها فيها بعد الطلاق، قررا تنفيذ الطلاق إلى وقت معيّن يناسب لبنى ولو قليلاً.

ومن جانب فراج وفوزية اكتشف الباحث أنّ سبب شجارهما هو الظروف الاجتماعية الاقتصادية التي عاشها. جعلت مرتبه بالكاد يكفي لتغطية مصروفات البيت لثلاثي الشهر أو نصفه. ^{٦٠٥} ومن ثمّ شرع زوجها يذمها على الإسراف وعدم معرفة كيفية تدبير المعيشة في عصر تفشي الغلاء الساحق. ويذمها تارة على عدم وظيفتها تارة مع أنه يعرف مستوى الأكاديمي قبل أن يتم الزواج. ^{٦٠٦} الأمر الذي جعل جدّ فوزية يساعدها بشيء يسير من مدخراته. ومع ذلك تذهب إلى بيت الأسرة لتوفر لنفسها بعض الأموال لمصروفات البيت.

ومن أمثلة الشجارات الزوجية التي دارت بين فوزية وزوجها ما تحكيه فوزية لأخيها سالم: "غضت الابتسامة من وجهه وأصبح عصبيا يثور لأتفه شيء ويختلق شجارا في البيت. وحين تحاول تهدئته وتقول إنها لا تقصر في واجبها وإنها تخدم في البيت كالجارية يرّد بأن أمه تعمل في بيتها أضعاف ما تعمله فوزية دون أن تشكو ودون أن تنطق بكلمة واحدة!" ^{٦٠٧} ومن السذاجة بمكان أن يقارن بين أمّه وفوزية، إذ لا بد أنّ هناك اختلافات الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية

^{٦٠٣} بماء طاهر. ٢٠٠١م. نقطة النور. ص. ٨٥.

^{٦٠٤} المصدر نفسه. ص. ٨٦.

^{٦٠٥} المصدر نفسه. ص. ١٨١.

^{٦٠٦} المصدر نفسه. والصفحة نفسها.

^{٦٠٧} المصدر نفسه. ص. ٩٩.

بين المرحلة الزمنية التي عاشت فيها أمه والتي يعيشها مع زوجته. فعلى سبيل المثال: إنّ الزمن الذي يعيشه فراج زمن منتصف بكونه عصر تفشي الغلاء الساحق.

وعلى هذا الأساس، لا غرابة إن وجد أنّ مرتبه لا يكفي نصف الشهر، لأنّ الغلاء يأخذ كل أمواله. لكن يبدو فيما بعد أنه قد حاول المؤلّف هنا أن يأتي بدافع هذا الشجار، فإذا إنه لم يكتف بتصوير الشجار الزوجي الذي يفتقد إلى تفسير ومبرر، بل إنّما أتى بمبرره ودافعه. والدافع هو أن فراج، كما تعترف الزوجة، "لم يصبح سيئاً لكنه يرهق نفسه في الشغل أكثر من اللازم وكل الأشياء التي توقعها لم تحدث: لا البعثة ولا المكافأة التشجيعية ولا الوقت الذي يسمح له بالدراسة العليا التي حلم بها. والمرتب الذي كان يكفي تماماً قبل سنتين أصبح الآن يتبخر قبل آخر الشهر بكثير..."^{٦٠٨} ويزيد الراوي العليم بكل شيء وضوحاً لهذه المسألة في مكان آخر من الرواية، حيث فسّر وشرح الأسباب والظروف الاجتماعيّة الاقتصاديّة التي ولّدت خلافات بين الزوجين. ويقول: "ومع أن فوزية لم تحدث أحداً عن أسباب خلافاتها مع زوجها فقد كان مفهوماً أنّ مرتبه لم يعد يكفي مصاريف البيت حتى منتصف الشهر، وأنّ الدّيون التي تراكمت عليه كانت سبباً مستمراً في اتهامه لزوجته بالإسراف وعدم التدبير. كانت في كل مرة تحسبها له بالورقة والقلم وهي تبكي، ولم يكن يقتنع."^{٦٠٩} ثم لاحظت الأسرة أسباب الخلافات بينها وبين زوجها. مع أنّها لم تحدّث واحداً منهم، ولو سليم، عن تلك الأسباب. كما أنّ التفسير الوحيد الذي يطرأ في ذهن أفراد أسرتها في زيارتها الكثيرة لبيت الأسرة هو أنّ مرتبه أصبح لا يكفي لمصاريف البيت، ومن ثم تأتي لكي توفر لنفسها وطفلها مصاريف البيت. وحتى لا يتهمها فراج بالتبذير والإسراف وعدم التدبير.

إلا أنّ فوزية سئمت من كتمان ما في قلبها عن زوجها. وصارحت أختها بالأسباب التي أدت إلى الشجارات المستمرة بينهما، علماً بأنّها أخبرته عن التغيرات التي طرأت على زوجها. وتزيد قائلة: "هي تعتقد أن فراج يفتعل كل هذه

^{٦٠٨} بماء طاهر. ٢٠٠١م. نقطة النور. ص. ٩٩.

^{٦٠٩} المصدر نفسه. ص. ١٨٠.

المشاجرات لأنه يريد أن يتزوج من موظفة لها مرتب. لم يعد مرتبه وحده يكفي للمعيشة، وبعد أن كان متشددا في أن زوجته يجب أن تبقى في البيت لتربية الأولاد أصبح يعيرها بأن شهادتها الإعدادية لا تنفع لأن تشتغل في أي وظيفة.^{٦١٠} ويمكن القول إنها وجدت تفسيراً آخر للأسباب التي أدت إلى كثرة المشاجرات بينهما. كما أنه لا يستبعد أنها زادت على الأسباب الأولى السابق ذكرها هذا السبب الذي ذكرته في هذا الاقتباس الأخير. وهي: أنه يريد أن يتزوج من امرأة لها مرتب، إذ إنّ مرتبه لا يكفي للمعيشة.

ويتجلى الشجار الزوجي في الرواية السادسة في زواج كاثرين ومايكل. ولا يستبعد القارئ احتمال وقوع مثل هذا الشجار في زواج بُني على أساس باطل. ولقد صرّح لها (كاثرين) بأنه تزوّج بها ليعذب نفسه.^{٦١١} ومن هنا بدأت المتاعب والمشكلات. ويتمثل الشجار الزوجي بينهما في مسائل تتعلق بتزجيمها وقراءتها؛ يسخر من قراءتها وترجماتها. يرى إنه لا فائدة في كل ذلك، والأفضل أن تهتم بأشغال البيت. يرميها طول الوقت بالجهل ويكتشف أخطاءها في قراءتها لليونانية واللاتينية. كما يعلق الشجار بمقالاته ودراساته في التاريخ اليوناني القديم، أي أنها تعرف أنّ فيها نقولات كثيرة بدون إحالات أو الرجوع إلى أصحابها. لكنها لا تُظهر له ذلك.^{٦١٢}

وقد لاحظ الباحث أنّ الاقتباس الذي يبرز حالة هذين الزوجين بأكثر وضوح هو ما قالته كاثرين عندما تسترجع حوادث ماضيها البعيد للقارئ:

كان يخطف الكتب من يدي ويمرقها لأني أضيع وقتي فيما لا يفيد بدل أن أعمل في البيت. فلأحاول على الأقل إتقان اللغات التي بدأتها. كنت أقوم بكل هدوء وأخذ كتاباً من مكتبته وأشرع في تمزيقه. يهجم عليّ ليضربني ويمعني فأخذ مزيداً من كتبه أضربه ببعضها وأمزق منها ما أستطيع. كنا نقتل أحدهنا الآخر في تلك المعارك بالكتب والتضارب في معارك أخرى. كان الأمر سينتهي فعلاً بالجريمة أو فضيحة لأني فكرت كثيراً أن أهرب من البيت ومن البلد كله لولا إشفاعي على

^{٦١٠} بماء طاهر. ٢٠٠١م. نقطة النور. ص. ١٨١.

^{٦١١} بماء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ٢٦.

^{٦١٢} المصدر نفسه. ص. ٢٥.

أمي وفيونا، ولو لم يقتله في النهاية بخله وعناده. ٦١٣

يبدو أنّ الاقتباس السابق يشير إلى درامية الصراع وعنفة بين الزوجين. فالزوج يرى أنّ في قراءتها تضييعاً للوقت فيما ليس له فائدة. ولماذا لا تركّز على إتقان تعلّم اللغات الذي بدأت. وبوصفه زوجها فهو مسؤول على نهيها عن ذلك. ولذا يمزق الكتب التي تقرأ. إلا أنّ الزوجة لا تبادل هذا الرأي. فهي ترى أنّ قراءتها مفيدة جداً، إذ إنّها تساعدها في إعداد بحثها عن الإسكندر الأكبر. وبما أنّها ليست صابرة؛ تعامله بالطريقة التي يعاملها: تمزق كتبه من مكتبته. يغيظه هذا التصرف، فيضربها، فتبادل الضرب بالكتب. واستمر الحال هكذا إلى أن أقعده مرض أصبح له وسيلة للانتقال إلى جوار ربه. ٦١٤ وتوحي المناقشة السابقة أخيراً أنّ القاسم المشترك بين الشجارات الزوجية في الروايات المدروسة هو افتراق الزوجين، إمّا عن طريق الطلاق: الدكتور شوكت والدكتورة صفاء، أو الموت: مايكل وكاثرين. إلا أنّه يستثنى من هذه الملاحظة الشجار الزوجي بين فراج وفوزية في الرواية الخامسة، والذي بين والدي الراوي المشارك في الرواية الأولى.

المطلب الثاني: تدهور العلاقات الزوجية

يظهر تدهور العلاقات الزوجية، على عكس الشجار الزوجي، في ثلاث روايات: الرواية الثانية، والرابعة، والسادسة. ويتجلى الفرق بين الشجار الزوجي وتدهور العلاقات الزوجية في وجود مشاحنات وإهانات وتبادل كلام قبيح بين الطرفين. أمّا في تدهور العلاقات الزوجية فكثيراً ما لا توجد هذه الظواهر. وكل ما هنالك، أنّ العلاقة تبدأ بالاضطراب وتتدهور شيئاً فشيئاً. ويكون ذلك نتيجة لوقوع حادثة بين الزوجين. فيشعر واحد منهما بكره تجاه الآخر، أو يشعر كل منهما بكره تجاه صاحبه.

يكتفي كل من الشخصيتين بالشعور ولا يبدي أي محاولة في إبراز ذلك الكره. ويولّد ذلك الشعور سلوكيات وتصرفات وانفعالات تشير إلى أنّ العلاقة بينهما لم تكن كما كانت. ويصبحان كأنهما ليسا شريكي حياة كما حدث ذلك في

٦١٣ بماء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ٢٧.

٦١٤ المصدر نفسه. ص. ٢٧.

الرواية السادسة بين كاترين ومحمود عزمي.^{٦١٥} ويلاحظ أخيراً أنه من بين الذين تدهورت علاقاتهم الزوجية بعضهم انتهت العلاقة بينهم بالطلاق: بريجيت وألبرت في الرواية الرابعة، أو الموت: محمود وكاترين، في الرواية السادسة. وتبقى علاقات البعض منهم كما هي: لا يفرق بينهما لا طلاق ولا موت: ضحى وشكري، في الرواية الثانية.

يتجلى هذا العنصر - في البداية - في الرواية الثانية بين شخصية ضحى وزوجها شكري. كانا ينتميان إلى طبقة اجتماعية واحدة: الأرستقراطية. وكان الزوج مقامراً وفاسقاً: يخونها مع نساء أخريات خارج البيت.^{٦١٦} ونفرت من فسوقه. فكان هذا سبباً من الأسباب التي دفعتها إلى أن تخونه هي الأخرى عندما أحببت الراوي المشارك. وتقول ضحى في هذا الصدد:

وغضبت من نفسي. لم أعرف من الرجال غير زوجي. طراً على ذهني في لحظات غضب أن أخونه لأنه كان يخونني طوال الوقت. ولكن ذلك كان غضباً فقط. كنت أعرف في قرارة نفسي أنني لن أفعل ذلك، ليس من أجله هو ولكن من أجل نفسي. لا لأنني أحترمه ولكن لأنني أحترم نفسي. ولكن حتى في الليالي القليلة التي كان زوجي يبقى فيها في البيت كنت أراك معه وأراك بدلا منه. وكان يملؤني عار كأني بالفعل محتته، وكان يملؤني غضب. غضب هائل في النفس.^{٦١٧}

ويبدو من الاقتباس السابق، أن سبب تدهور علاقة ضحى وزوجها هو خيانة الزوج وعدم تقديره لضحى بوصفها زوجة له. وكانت ضحى تسترجع ذلك للراوي المشارك حين تقرّ له أنها تجبه، مع أنها تعتبر ذلك نوعاً من الخيانة. إذ إنها امرأة متزوجة. وإذا، هي الأخرى تبادل زوجها خيانة بخيانة. لكن ذلك جبا، كما يوحي لمقطع السابق، ولم تستطع أن تسيطر على قلبها. لم تختز أن تقابله في حياتها، ولم تختز أن تجبه. كل ما هنالك وجدت نفسها تجبه شياً فشيئاً. وكانت تشعر بهذه الخيانة، لكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً تجاهها. وتكتفي بالشعور بغضب هائل في نفسها. والغريب أن شكري لا يشعر بذنب في جميع تصرفاته وسلوكياته تجاه زوجته ضحى. وربما هذا الذي جعل الراوي يعجز عن أن يشعر بالذنب

^{٦١٥} بجاء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ١٤٨، ٢٢٤.

^{٦١٦} بجاء طاهر. ١٩٨٥م. قالت ضحى. ص. ٧٥.

^{٦١٧} المصدر نفسه. والصفحة نفسها.

فيما جرى بينه وبين ضحى في روما أثناء البعثة العلمية حتى بعد أن انتهت العلاقة بينهما ورجعا إلى مصر.^{٦١٨} ويلاحظ أن تدهور العلاقة لم يُنه العلاقة بينهما.

ويتجلى هذا العنصر في الرواية الرابعة في زواج يوسف بإيلين. في البداية، كان زواجهما زوج المصلحة على الأقل من جانب يوسف. تزوج بما لأجل الحصول على الإقامة في المدينة المغتربة. ومن جانب إيلين يبدو أنها تحتاج إليه لإبقاء كرامتها في أعين الربائن، إذ كان عندها مطعم تصنع فيه الطعام والقهوة. وعندما حَيَّبَ أمله لإصدار صحيفة الأمير غير معاملته معها. فأصبح يخرج من البيت من الفجر ولا يعود إلا في منتصف الليل. تقول زوجته للراوي الصحفي بعد أن شاهدت تغير يوسف: "ولكن بعد أن انصرفت ترك المطبخ ولزم حجرته بقية اليوم، ثم في الصباح قال إنه ذاهب إلى الأمير. ومن يومها لم أعد أراه تقريبا. يصحو في الصباح ليذهب إلى الأمير ولا يرجع إلا في آخر الليل."^{٦١٩}

والملاحظ أن تصرفاته لها أنه بدأ ينفرد منها. فأرادت أن تنهي العلاقة بينهما عن طريق القانون. إلا إنَّ يوسف لم يكن موجوداً لتكلمه في ذلك. فصرَّحت للراوي ما تنويه. وصرَّح لها هو الآخر أنه لا يملك من أمور يوسف شيئاً: ليس له حرية أمره أو نهيهِ. بل إنما "هو حرّ يفعل ما يشاء."^{٦٢٠} وربما صبر يوسف على حالته في تلك المدينة: أي على كونه طبّاحاً وقهوجياً بدلاً من رجوعه إلى مصر.^{٦٢١} ولم تصرَّح الرواية بانفصالهما مع وقوع اضطراب وتهدم العلاقة بينهما.

أمَّا في الرواية السادسة فقد ظهر هذا العنصر في العلاقة الزوجية بين محمود عزمي المأمور وكاثرين. وإن لم يكن زواجهما زواج حبّ حقيقي (لأنَّ محمود صرَّح لكاثرين بأنه يجب أخرى)،^{٦٢٢} فقد كان زواجهما زواجا هادئاً؛ لم تكن هناك مشاحنات ولا شجارات بينهما. فقد تجاوب معها فعاشا عيدا متصلا لشهور طويلة. "لم أصدق أني يمكن في أي وقت أن أقبل هذا الفهم للحب وللحياة. لكني رافقته راضية تماما، سعيدة تماما. هل سقطت بفضلها عني أوهام كثيرة أو كنت

^{٦١٨} بجاء طاهر. ١٩٨٥م. قالت ضحى. ص. ٩١.

^{٦١٩} بجاء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ٢٠٠.

^{٦٢٠} المصدر نفسه. ص. ٢٠٠.

^{٦٢١} المصدر نفسه. ص. ١٧٤.

^{٦٢٢} بجاء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ١٨.

أنا مستعدة لذلك من الأصل فلم يفعل محمود إلا أن نزع عني قناع الزهد؟^{٦٢٣} ويلاحظ هنا أنّ علاقتهما كانت وطيدة في البداية. لكن تسرب إليها الملل، ولم تعد كاثرين تجد المتعة نفسها التي اعتادت عليها منذ بدء علاقتهما.^{٦٢٤} ويؤكد محمود ما قالت كاثرين: "واستنفدنا بالفعل خلال أسابيع كل طاقة العشق قبل أن يستبدّ بي السأم. لكن كاثرين استمرت تبحث في قلق لا ينتهي عما يمكن أن يطيل ليالي عرسنا الصحراوي."^{٦٢٥}

وكانت الحادثة التي سببت بداية تدهور علاقتهما هي انكسار ساق إبراهيم الشاويش. تقول كاثرين: "أصبحنا نتجنب بعضنا وننام في الفراش غريبين معظم الوقت."^{٦٢٦} وربما ذلك نتيجة أنه يرى ذنبها في تلك المأساة. لولا ذهابها لما حدث ذلك. وعندما تأزمت الظروف التي تحيط بمليكة والتي تحيط بفيونا تهدمت علاقتهما الزوجية القوية. وبدأ كل منهما يشعر باضطراب العلاقة الزوجية بينهما وتهدمها التدريجي. ويقول محمود بعد مأساة مليكة إنه إذا رقد بجانب كاثرين يشعر بحضورها نفرّق بينهما. "أظن أنّها انتهت في داخلي بعد ما جرى لمليكة. ترقد بيني وبين كاثرين كل ليلة لتبعدي عنها وتبعدها عني ثم تقتحمني في المنام."^{٦٢٧}

والحقيقة أنّ كاثرين حاولت جاهدة أن تعيد العلاقة بينها وبين زوجها كما كانت قبل وصولهما إلى السيوة إلا إنها فشلت. وعندما خرجت كاثرين إلى المعبد بدون معرفة زوجها رجمها بعض الزجالة وأنقذ حياتها السلماوي قبل أن تُجرح كثيراً. وبعد هذه الحادثة انتهت "إلى تجاهل كامل من الطرفين. تجاهل يكاد يكون ودياً."^{٦٢٨} وبحضور فيونا وسط تلك الظروف ووقوع محمود في حبّها على رغمه يئست من أن يعود لها كما كان. وقررت تركه إذا شفيت فيونا ورجعوا إلى مصر.^{٦٢٩} لكن لم يرجع واحد منهم: لا كاثرين ولا فيونا ولا محمود. كما يبدو أنّ العلاقة بينهما انتهت بموت محمود.

^{٦٢٣} بهاء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ١٩.

^{٦٢٤} المصدر نفسه. ص. ٩٣.

^{٦٢٥} المصدر نفسه. ص. ٧٩-٨٠.

^{٦٢٦} المصدر نفسه. ص. ١٤٨.

^{٦٢٧} المصدر نفسه. ص. ٢٠٣.

^{٦٢٨} المصدر نفسه. ص. ٢٧١.

^{٦٢٩} المصدر نفسه. ص. ٢٤٧.

المطلب الثالث: تدهور العلاقات الأسرية

من خلال العلاقات الإنسانية التي عقدها بماء طاهر بين الشخصيات التي صورها في الروايات المدروسة، أكد تدهور تلك العلاقات بعد أن رسم توطئها وتماسكها. وتعتبر العلاقات الأسرية العنصر الأساس في نفضة المجتمعات الإنسانية. حيث إن كانت تلك العلاقات تجري حسب نظام حياتي محكم التصرفات والأفعال والانفعالات، يتقدم المجتمع ويتطور. أمّا إذا وجد ضعف وعيب في نظام العلاقات الأسرية، فإنّ ذلك يقودها إلى الانهيار.^{٦٣٠} وقد تخدمت هذه العلاقات من جوانب عدة. منها على سبيل المثال: تدهور علاقة شخصيتين كان بينها قرابة عمومة، وذلك بين البك القنصل وحريري، وبين صفيّة وأسرة الراوي من جانب، وبين صفيّة ووالد الراوي من جانب آخر. وكل ذلك في الرواية الثالثة. وتارة تخدمت علاقة الإخوة كما تجلّى ذلك بين الراوي المشارك وأخته في الرواية الثانية. وطوراً تنفسخ علاقة الأب مع الابن بدون إشارة إلى توطد تلك العلاقة من قبل أو من بعد. ويبدو هذا جلياً بين راوي الرواية الأولى ووالده وفي الرواية الثانية بين الأب والراوي، وشعبان والباشكاتب في الرواية الخامسة. وتنفسخ العلاقة بين الأب والابن بعد الإشارة إلى تمسكها من قبل. ويبدو هذا جلياً بين الراوي الصحفي وابنه خالد في الرواية الرابعة. وعلى هذا الأساس، يناقش الباحث هذا المطلب وهذا الرمز بالاعتماد على الظواهر المتفشية المشار إليها. وعليه، يبدو هذا الرمز قد ظهر في جميع الروايات ما عدا السادسة. ويبرز بشكل متفوق في الرواية الثالثة. ويرجع السبب في ذلك إلى كون معظم أحداث الرواية يقع في قرية لم يذكر المؤلف اسمها. وكان أهل هذه القرية الصغيرة الذين يمثلون أحداث الرواية يعتبرون أنفسهم أسرة كبيرة تفرّع أفرادها على جوانب القرية.^{٦٣١} فكان جدّهم الأعلى واحداً. لذا كان لمعظم شخصيات الرواية علاقة أسرية متشابكة: فلصفيّة علاقة بأسرة الراوي، وللبك القنصل علاقة بحري ولأسرة الراوي. وما إلى ذلك.

^{٦٣٠} معاذ بشير المناصير. ٢٠٠٩م. "الخطاب النقدي في الرواية العربية: الروايات الثلاثية نموذجاً". (رسالة دكتوراه). الجامعة الأردنية. ص. ٨٣.

^{٦٣١} بماء طاهر. ١٩٩١م. *حالاتي صفيّة والدير*. ص. ٣٧-٣٨، ٤٥.

ويظهر تدهور العلاقات الأسرية في الرواية الأولى، من جانب تفسخ علاقة الأب مع الابن، بدون إشارة إلى توطّد تلك العلاقة من قبل أو من بعد في انهيار علاقة والد الراوي والراوي المشارك. ومما يشير إلى ذلك ما دار بين الشخصيتين: "قال وهو يبتسم نححت؟ فضحكت. أعاد سؤاله غاضبا وهو يخمن إجابتي فقلت وأنا أضحك لا. قال ولماذا تضحك يا كلب؟ ما الذي يضحكك؟"^{٦٣٢} حدث ذلك في بداية الرواية. ويكرر الأب تسميته للراوي المشارك "الكلب" في نهاية الرواية حيث يقول: "ولما انتهى الغناء كنت أقف بعيدا فأشار لي أبي وابتسم وقال تعال يا ولد. قبل يد سيدنا. لكني لم أتحرّك. انتفض واقفا ليجذبني وقال تعصي أباك يا كلب؟ فحرّيت وزهبت لأمي وبكيت وقلت لها لم أقبل يده.. لم أقبل يده."^{٦٣٣} ويبدو من هذا أنّ علاقة الراوي المشارك وأبيه لم تكن وطيدة لا في بداية الرواية، ولا في نهايتها.

ويتجلى تدهور العلاقات الأسرية في الرواية الثانية في تدهور علاقة الأب مع الابن أولاً، وفي تدهور العلاقات الإخوانية ثانياً. وقد اكتشف الباحث أنّ تدهور علاقة الأب مع الابن - بدون أية إشارة إلى توطّدها من قبل - يتمثل بين الراوي المشارك وأبيه. كان والد الراوي رجلاً صعب المعاملة؛ ولم يكن منفتحاً طول حياته. ولذا كان صعباً عليه أن يفتح حتى لزوجه وأولاده. واقتصر معاملتهم معهم في إعطائه إياهم بعض أوامر وفي التساؤل عن أحوال دراستهم. لذا يقول الراوي: "لكنه لم يكن أبداً صديقاً لي ونادراً ما كان يكلمني أو أحتي إلا لكي يعطينا أوامر أو ليسألنا عن أحوال الدراسة."^{٦٣٤} معنى هذا، أنه حرّم أبناءه حب الأب لأبنائه، ذلك الحب القوي الذي يهبه الأب لأبنائه.

ويتجسد تدهور علاقة الإخوة بين الراوي وشقيقته الصغيرة، سميرة. وتجدد الإشارة هنا إلى أنهما كانا يتمتّعان بقرابة والمحبة التي فقداها من الوالد. ومما يشير إلى ذلك: "لم أكن أعرف كيف سأفعل ذلك، ولكن وجهها أشرق بمجرد أن سمعت ما قلت وقامت فقبلتني من جديد."^{٦٣٥} وقوله بعد وصول خطاب التعيين لأخته: "وكنّت سعيدة لتعيّن في مصلحة قريبة

^{٦٣٢} بماء طاهر. ١٩٨٥م. شرق النخيل. ص. ٦.

^{٦٣٣} المصدر نفسه. ص. ١٠٦.

^{٦٣٤} بماء طاهر. ١٩٨٥م. قالت ضحى. ص. ٣٩.

^{٦٣٥} المصدر نفسه. ص. ٩٢.

من البيت، راحت تففز وتصيح كطفلة.. وتعانقي كل لحظة وهي تقول كيف أشكرك يا أخي؟ كيف أشكرك؟..^{٦٣٦}
وتغيّر الوضع بعد زواجها من عبد المجيد الذي يعمل في الوزارة التي يتوظف فيها الراوي. كان من الذين يشاركون في سرقة
أموال الناس والحكومة ويشاركون في الفساد الإداري. ولكون الراوي لا ينتمي إلى الاشتراكية التي ينتمي إليها عبد المجيد،
ولا يقف بجانبه، بدأ يصنّفه في العناصر السلبية.^{٦٣٧}

وطبيعي أن يلاحظ أنّ الزوجة تساند زوجها في أموره. إلا إنه ليس أمراً سهلاً أن تقف بجانب زوجها على حساب
شقيقتها. والأفضل أن تكون وسطاً بينهما. فلتتذكر أنها يمكن أن تغيّر زوجها؛ فرمما يحدث شيء ذات يوم يدفعه إلى أن
يطلقها بلا سابق إنذار. وبذلك تنتهي العلاقة الزوجية بينهما. وعلى هذا الأساس، يلاحظ أنها تركت شقيقتها واتبع
زوجها. ويتجلى ذلك في تسميتها لشقيقتها "اليساري": "قالت في غضب هذا اليسار سيهدم الاتحاد الاشتراكي ويخرب
البلد. فقلت لها بدهشة وما هو اليسار يا سميرة؟ فقالت الذين يقلون أدهم عن رؤسائهم. عندنا منهم في المصلحة
أيضاً.. اليسار هو.. وتطلعت إلى عبد المجيد في استفهام فقال بإيجاز، بلهجة واثقة، العناصر الهدامة. وكررت سميرة
العناصر الهدامة، ثم تطلعت إليّ بنظرة لوم.^{٦٣٨}

ومرة أشار عبد المجيد للراوي أنّ معاملته مع سيد القناوي تهدد مستقبله السياسي. ردّ عليه الراوي في غضب: "في ستين
داهية مستقبلك السياسي... وقالت سميرة وهي تنظر إليّ بجدة بعيد الشر عن مستقبله.^{٦٣٩} ويتمثل تركها شقيقتها
بطريقة أكثر وضوحاً في شجار بين زوجها وشقيقتها. ضرب أحوها زوجها لأنه وجدته يبحث عن ورقة أو أي دليل آخر
في غرفته يجعله مجرمًا؛ لأنه يقف بجانب سيد القناوي الذي يحاول أن يجارب المشاركين في الفساد الإداري أمثاله. فضربه
الراوي وطرده وتبعته الزوجة فور خروجه من البيت. ويقول الراوي: "وسمعت خطواتها على السلم وسمعت نداءها بصوت

^{٦٣٦} بماء طاهر. ١٩٨٥م. قالت ضحى. ص. ٩٨.

^{٦٣٧} المصدر نفسه. ص. ١٠٤.

^{٦٣٨} المصدر نفسه. ص. ١١٥.

^{٦٣٩} المصدر نفسه. ص. ١١٦.

ملهوف عبد المجيد.. عبد المجيد.^{٦٤٠} ولم يشر الراوي ولا المؤلف ما إذا رجعت إلى شقيقها وتصلحت معه.

على أنّ تدهور العلاقات الأسرية في الرواية الثالثة يتجلى أولاً في انهيار علاقة صافية بحري، وثانياً في تدهور علاقة البك بحري، وثالثاً في اضطراب وتهدم علاقة البك بأهل القرية، ورابعاً في انهيار علاقة والد الراوي الطفل بصافية، وخامساً وأخيراً في تهدم علاقة صافية بأسرة الراوي. وفي تدهور علاقة صافية بحري قد اكتشف الباحث أنّ أهل القرية توهموا علاقة حب بين صافية وحري. فقد "كان هناك قبل كل شيء آخر إحساس في بيتنا وخارج بيتنا بأنّ صافية لحري، رغم أنه لم يطلبها من أبي قط بل كان يعاملها معاملة الأطفال".^{٦٤١} وانتهت هذه العلاقة المزعومة عندما جاء حري يطلب يدها للبك. يبدو انتهاء العلاقة في ردها قائلة: "حري قال ذلك؟... أنا موافقة يا والدي.. سأتزوج القنصل وسأعطيها ولداً".^{٦٤٢} وهذا الحدث هو مصدر المشكلات المتراكمة في الرواية. كما أنّ هذا التدهور هو الذي ولّد سائر التدهورات المتجلية في عالم الرواية. ومما يشير إلى هذا التدهور ما قالت: "صافية لما سمعت خبر تخفيض الحكم: وما له؟.. ليتهم يفرجون عنه غدا.. أريده هنا أمام عيني.. وأريد أن يراه حسن ليعرف من الذي سيقتله عندما يكبر".^{٦٤٣}

ينطلق الباحث من تدهور علاقة متوهمة بين صافية وحري إلى تدهور علاقة حري بخاله البك. وكانت علاقتهما في البداية جيدة نظراً للقرابة الأسرية التي بينهما. كما أنّ البك آمنه وترك أرضه لابن أخته حري "يشرف على زراعتها ويحاسبه عنها"^{٦٤٤} وذلك لما حددت ملكيته. كما "كان حبيبه وموضع سره." وبدأت العلاقة بينهما تنهار لما أشاع الوشاة أنّ حري يريد أن يقتل وليده حسين ليحصل على الميراث.^{٦٤٥} والغريب أنّ البك صدّق هذه الأسطورة المتخيلة كأنه لم تكن لديهما قرابة ولا علاقة أسرية وطيدة. ثم حاول أهل القرية ليفهموا البك أنّ ما يظنه ليس صحيحاً. وحاول

^{٦٤٠} بماء طاهر. ١٩٨٥م. قالت ضحى. ص. ١٢٢-١٢٣.

^{٦٤١} بماء طاهر. ١٩٩١م. خالتي صافية والدي. ص. ٤٧.

^{٦٤٢} المصدر نفسه. ص. ٥٥.

^{٦٤٣} المصدر نفسه. ص. ٧٥.

^{٦٤٤} المصدر نفسه. ص. ٥٣.

^{٦٤٥} صلاح فضل. ٢٠٠٣م. أساليب السرد في الرواية العربية. ص. ٧٠.

والد الراوي الطفل أيضاً أن يفهمه. إلا إنَّ البك أصبح صمّاماً في اعتقاد وإيمانه بمضمون تلك الوشاية. ولذا اضطرت وتهدمت العلاقة بينهما تهماً نهائياً مأساوياً: لا صلاح ولا سلام بعده.^{٦٤٦}

من هنا يجرّ الباحث بتدهور علاقة البك مع أهل القرية. كانوا يكرمونه ويوقّرونه؛ وهو كذلك يقدرهم. وحتى عندما تم تنفيذ قرار الحكومة في الإصلاح الزراعي، "الذي من شأنه أن يحول الفلاح إلى ملاك للأرض التي يزرعها"،^{٦٤٧} وأعطتهم جزءاً كبيراً من أرضه، رضي بذلك. فلم يحسداهم ولم يغيّر معاملته معهم؛ إذ إنه يعتبرهم أسرة كبيرة له. لكن يتجلى اضطراب وتهدم علاقة البك بأهل القرية عندما لاحظوا تغييراً يطرأ عليه نتيجة الوشاية التي أشاعها الوشاة. استمع البك إلى الوشاة وأمن بظنهم ووسواسهم. حاول أهل القرية أن يدافعوا عن حربي بأنه ليس من نوع الرجال الذين يفعلون ذلك، أو يحتمل أن يفعلوا ذلك. لكنه تجاهل كل ذلك.

وذات يوم، تمشّم زجاج الشرفة في الغرفة التي ينام فيها حسان. ونتيجة لذلك جعل البك القنصل رجلاً غرباء يحرسون السراي والحديقة. والأدهى والأمر هو أنهم يعاملون أهل القرية، رجالهم ونساءهم، كبيرهم وصغيرهم، معاملة قاسية. "ولم يعتذر البك القنصل الذي تغيرت أحواله كثيراً عما كنا نعرفه من قبل، لم يعتذر عن تصرفات رجاله."^{٦٤٨} كما أراد البك أن يطفى نار غضبه نتيجة للهجوم الذي تعرض له. فجعل رجلاً غرباء من حرسه يجلدون حربي ويعذبونه.

وعندما "ظهر فلاحون ومزارعون على أطراف الحقل. وقفوا متحمدين لما رأوه.. وتحاسر أحدهم على التقدم نحو البك فرأوا واحداً من الغرباء يصوب نحوهم بندقيته. لكن البك مدّ يده وأنزل ماسورة البندقية ولم يزد على أن التفت برأسه نحو الواقفين هناك وقال: لا أريد أن يبقى أحد هنا."^{٦٤٩} استطاع حربي أن يدافع عن نفسه وقضى على البك في محاولته

^{٦٤٦} بهاء طاهر. ١٩٩١م. خالتي صفية والدير. ص. ٧٢.

^{٦٤٧} سلمى محمود سعد. ٢٠٠٠م. "الثورة الجزائرية في روايات الطاهر وطار. (من الخمسينات حتى مطلع التسعينات)". (رسالة ماجستير). جامعة الأمريكية في بيروت. ص. ١٥.

^{٦٤٨} بهاء طاهر. ١٩٩١م. خالتي صفية والدير. ص. ٦٤.

^{٦٤٩} المصدر نفسه. ص. ٦٨.

لإنقاذ نفسه. ففرّ من مشهد القتل. لكنّ والد الراوي إتّحقق به وأقنعه لتسليم نفسه للشرطة.^{٦٥٠} كل هذه الأسباب والملايسات سبّبت اضطراب وتهدم العلاقة الوطيدة بين أهل القرية والبك.

ويصل الباحث الآن إلى تدهور وتهدم علاقة صافية بوالد الراوي. ويظهر هذا التهؤم في تحوّل صفيّة إلى آلة انتقاميّة تصبّ كيدها على حربي نفسه. ويرجع السبب في هذا لأنه دافع عن نفسه عندما جلّده زوجها الراحل حتى كاد يقتله. وقتل البك أثناء ذلك. ومن ثمّ عزمت على الانتقام والأخذ بالثأر. ومن وسائل انتقامها سمّت حماراً في بيتها "حربي" احتقاراً لصاحب الاسم.^{٦٥١} غضب والد الراوي عندما سمع ذلك، فذهب إليها وشرح لها إنّ ذلك ليس إسلاماً: أن تسمي كلباً باسم الإنسان الذي كرمه الله سبحانه وتعالى.

وقبل ذلك أرادت صافية أن تقبل يده كما اعتادت، فسحب تلك اليد لأنه غاضب عليها لأجل فعلها. وصرحت له أنّ هذه طريقتها لتطفئ نار غضبها. وتساءله في تلهف: "وثأري يا حاج؟ وناري يا حاج؟"^{٦٥٢} إلا إنه صمّم على أنّ ذلك عادة جاهلية وعلى المسلم الجيّد أن يجنّبها. وقال قبل أن يخرج من بيتها غاضباً: "والله يا صافية لو لم ترجعي عما أنت فيه فلن أدخل لك داراً بعد اليوم. حرام. ابن آدم لا يكون حماراً."^{٦٥٣} وطبيعي أن يتصرّف هكذا، إذ إنه شخصية كبيرة محترمة في القرية بدليل علمه، كما أنه خطيبهم في أيام الجمعة والعيد.^{٦٥٤}

أمّا بالنسبة لانهيار علاقة صافية بأسرة الراوي، فالظاهر أنه لا يغيب عن نظر القارئ ما بينهما من علاقة وطيدة، حيث إنّ صافية كانت يتيمة وراها والدي الراوي حتى زوجها للبك. وعن ذلك يقول الراوي الطفل: "كانت صافية بنت خال لأمي تويّ أبوها وأمها معا في واحد من أوبئة الملاييا التي كانت تضرب بلدنا كل حين. ولما كانت أمي أقرب من بقي

^{٦٥٠} بماء طاهر. ١٩٩١م. خالتي صافية والدير. ص. ٧٤.

^{٦٥١} المصدر نفسه. ص. ٨٥.

^{٦٥٢} المصدر نفسه. والصفحة نفسها.

^{٦٥٣} المصدر نفسه. ص. ٨٧.

^{٦٥٤} المصدر نفسه. ص. ٤٥، ٨٩.

لها، ولما كان أبي ابن عم لأمي في نفس الوقت، فقد كان طبيعياً أن تأتي لتعيش معنا.^{٦٥٥}

وقد تهادمت هذه العلاقة عندما شهد أفراد الأسرة كل التغييرات التي طرأت على صفية والتصرفات الغريبة التي تصدر منها. حينئذٍ قرروا أن يعاملوها بشيء من التحفظ والحذر. لكن مع ذلك كانت والدة الراوي الطفل تشفق عليها في مأساتها وتقول عبر الراوي: "مسكينة يا صفية مسكينة يا بنتي، وأحياناً تلتفت نحوي وتقول كأنها تواصل كلامها لنفسها: سيظل البك على رأسك حتى يوم الدين ولن يرتاح في نومته.."^{٦٥٦} ومع كل ذلك فقد تهادمت العلاقة بينهما، كما يقرر ذلك الراوي: "فقد انقطعت كل صلة بين أسرنا وصفية.."^{٦٥٧} وزاد التدهور سوءاً عندما تهادمت علاقتها برأس الأسرة على غرار ما أشير إليه سابقاً. ومن ذلك كانت والدة الراوي تحذره على ألا يذكر كلمة العيد أو يشير إلى أي شيء يتعلق بالعيد. وكان ذلك عندما تحمّله الهدية السنوية التي تتمثل في علبة الكعك وتأمره بأن يقول: "هذه العلبة لحسان..."^{٦٥٨}

ويتمثل هذا العنصر في الرواية الرابعة في جانبين: جانب الراوي المشارك وابنه خالد. وجانب برنار، زميل المهنة للراوي، وابنه. كان خالد شاباً عادياً يحب الرياضة ويتفوق فيها. كما يحب قراءة الأدب والشطرنج بصفة خاصة. وكان والده هو الذي علّمه الشطرنج، ولكنه بدأ يهزم الأب في سن ١٤ أو ١٥. وفرح بذلك الأب مثل كل أب.^{٦٥٩} وعلاوة على ذلك، كان متديناً طول عمره. ثم تغير بعد أن شاب قليلاً. وبالتالي صار يجادل أباه في مسائل يتوقع الأب منه السكوت. وأصبح يداني واحداً من والديه. فعل ذلك مع أن كليهما ما استطاع أن يفعل ذلك. لا الراوي ولا منار عيّن المذنب؛ يكفي أنه حدث ما حدث بينهما: الطلاق. لكنّ تعيين المذنب أمر صعب عندهما. وإن لم يستطيعا ذلك فكيف استطاع هو وقد حدث الطلاق عندما كان طفلاً؟

^{٦٥٥} بجاء طاهر. ١٩٩١م. خالتي صفية والدي. ص. ٤٥.

^{٦٥٦} المصدر نفسه. ص. ١٠٠.

^{٦٥٧} المصدر نفسه. والصفحة نفسها.

^{٦٥٨} المصدر نفسه. ص. ٤٥.

^{٦٥٩} بجاء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ٨١.

ومن ذلك غير خالد الطّريقة التي يخاطب بها والده أيضا. وأصبح يرفع صوته على صوت أبيه.^{٦٦٠} كما أنه أصبح يغالي جداً. ومما يمثل مغالاته أنه لم يعد يشاهد التلفزيون، ويريد من أخته، هنادى، ألا تشاهد أيضاً.^{٦٦١} ومع أن إبراهيم المحلّوي يرى أن خالد على حق في هذا الجانب، إذ إن التلفزيون - عندهم - يمثّل تخلفاً عقلياً، إلا إنه يمكن القول إن مصدر سلوكه هذا هو الترفع والتعالي. فهو قد بدأ يتعلّم مسائل دينية بسيطة. وبهذا العلم القليل الضئيل، وبدون تدقيق في الأمور، بدأ يحكم على الناس وعلى الأشياء بنظرته السطحية تجاهها. ومما يؤكد ذلك أن الأب يرى عكس نظرة ابنه؛ يرى أنه أخذ طريقاً صعباً، طريق المتطرفين. والتطرف مرض اجتماعي ابتلي به البشرية. من هنا بدأت تضطرب علاقتهما. وفي النهاية كتب الأب رسالة للولد يحذّره على أن القول بأنني على حق وأن الآخرين جميعهم على خطأ دائماً لا ينتج نتيجة جيّدة. وأنّ كلّ الشرور التي عرفها الراوي "في الدنيا خرجت من هذا الكهف المعتم".^{٦٦٢}

ويتجلى تدهور العلاقة الأسرية من جانب برنار بينه وبين ابنه الذي لم يحدد الراوي اسمه. كان لبرنار ابن عانى كثيراً في تربيته، ولما كبر تركه وذهب بعيداً، ثم سمع برنار من بعد إنه يتاجر في السلاح. وعندما حاول أن يمنعه سخر منه وتشاجر معه. قال إنه يريد أن يصبح فاشلاً مثله! لم يكن ينقص إلا أن يصف الأب بأنه أبله. ثم أصبح لا يهتم بالاتصال به ولو مرة شهرياً فضلاً من أن يتلقّى منه هديّة في عيد ميلاده.^{٦٦٣}

ويقول برنار عبر الراوي المشارك: "ولكن ما يوجع قلبه بالفعل طول الليل والنهار هو أن ابنه الذي أحبه ورباه ما إن كبر قليلاً وكوّن أسرة حتى نسي أباه تماماً. لا يكلف نفسه أن يطلبه بالتلفون مرة كل أسبوع أو حتى كل شهر ليسأل عن حاله أو ليعرف حتى إن كان حياً أو ميتاً..."^{٦٦٤} والظاهر أنّ هذا العنصر يظهر بصورة أوضح في كون الأب وفيماً جداً في تربيته للابن، وفي كون الابن عقيماً جداً في عدم الاعتناء بالأب الذي يحتاج إلى الاعتناء لاسيما بعد أن شاخ. وقد

^{٦٦٠} بجاء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ١٨٧.

^{٦٦١} المصدر نفسه. والصفحة نفسها.

^{٦٦٢} المصدر نفسه. ص. ١٩١.

^{٦٦٣} المصدر نفسه. ص. ٢٠٤.

^{٦٦٤} المصدر نفسه. ص. ٧٤.

اكتشف الباحث على هذا الاضطرار والتدهور للعلاقة بينهما عن طريق الحوار بين برنار والراوي الصحفي.

ويتمثل تدهور العلاقات الأسرية في الرواية الخامسة في الشجار بين الباشكاتب وابنه شعبان. غضب شعبان في موقف يتعلق بمرض ابنه سالم. أما المسألة التي تصور هذا العنصر فهي مسألة زواج فوزية. فبعد أن ألمح الباشكاتب بأن بيت فراج الذي ستسكن فيه فوزية من حجرتين، وأنها هي التي قالت له ذلك، استغرب شعبان سائلا كيف تعرف ذلك؟ ويبين السؤال إدانة للباشكاتب، كما يشي بأنه هو الذي تساهل في أمر تربية فوزية حتى تعرف مسكن رجل غريب.

ومن ثم اتهم أباه بأنه أفسد حياته: إنه أخذ أولاده وضيّعهم كما ضيّعهم. قال ذلك رافعاً صوته على أبيه.^{٦٦٥}

وكان رأي شعبان في ابنه سالم أنه مجنون، ولا بد أن يعالج من هذا المنطلق. ويرى الباشكاتب عكس ذلك. فمن هنا اختلف رأيهما في كيفية المداواة والعلاج لمرض سالم حتى آل بهما الحال إلى الشجار. إلا إنَّ شعبان طلب العفو من أبيه فيما عندما لاحظ خطأه، وقبّل "رأس والده طالبا الصفح قائلا إنه لا يستطيع أن يعيش دون رضاه عنه، وقال الباشكاتب إنه نسي ما حدث وإنه ربما لو كان مكانه لفعل ما فعله ولده."^{٦٦٦}

كما يتجلى هذا التدهور بين سالم وأبيه. وفي بادئ ذي بدء لم تكن علاقتهما علاقة وطيدة. لم يقترب الأب إلى ولده سالم ولا إلى بنته فوزية. وكان سالم يبادل المسامحة مع جده عندما أخبره عن موت زوجته سمية. فقال سالم إنَّ أمّه ماتت صغيرة جداً. وإنَّ لأبيه ذنب في ذلك. إنه فعل شيئا ينجيه؛ كما ينجيه الباشكاتب نفسه. ولذا يهرب منه ويهرب من فوزية وحتى الجد ليس استثناء. ولذا ليس له أصحاب، ولا يزوره أحد ولا يزور هو أحدا. ولذا يحوّل وجهه بعيدا كلما كلمه سالم، ولذا ينظر في الأرض حين يكلمه جدّه. فالتفسير الوحيد الذي يبدو عند سالم لمثل صاحب هذه التصرفات هو أنه فعل شيئا قبيحا يخاف منه نفسه. ولذا يهرب من الناس حتى لا يكشفونه، أو يذكرونه بماضيه البعيد. والحقيقة أنّ لديه يد في موت زوجته مبكراً،^{٦٦٧} وإن قدر الله وفاتها في ذلك الوقت. ومن ذلك الحوار الذي يبادله: الجد

^{٦٦٥} بماء طاهر. ٢٠٠١م. نقطة النور. ص. ٣٢-٣٣.

^{٦٦٦} المصدر نفسه. ص. ٤٠.

^{٦٦٧} المصدر نفسه. ص. ٣٦.

والحفيد: ففيه هدده الباشكاتب، وحدّره بالأ يكرّر ما قال. لكنه لم يسمع وواصل ثورته قائلاً: "أبي فعل شيئاً يخفيه هو وتحفّيه أنت، أبي لا يحبنا، كان يريد أن يضعني منذ زمن مع المجانين، وزوّج فوزية لرجل فلاح في الحارة لأنه يريد أن يتخلص منها ويريد أن يعاقبنا لأننا نجبها ولا نجبه، لا تكذب يا جدّي! أنت لا تحبه وأنا لا أحبه ولا أحد يحبه ولهذا لا يأتيه زبائن في المحل، ولهذا يعاقبه ربنا!".^{٦٦٨}

المطلب الرابع: تدهور علاقة الحبيين

من أنواع اضطرابات العلاقات الإنسانيّة التي أكّدت حضورها في متن الروايات المدروسة تدهور علاقة الحبيين. ويتجلى هذا التدهور في الروايات كلها ما عدا الرّواية الثالثة. ويكون هذا صحيحاً إذاً مال الباحث إلى الرّأي الذي يرى أنّ حربي لا يحب صفيّة - على الأقل ما صرّح المؤلّف ولا السارد بذلك. كما أتت بعض الإشارات التي تدل على أنّ صفيّة مغرمة به. وبجانب هذا، قد أشير إلى أنّ أهل القرية كانوا على توقع الحب بينهما وبالتالي الزواج. وبما أنه لا يوجد أيّ مقطع سردي يصحّ الاعتماد به في احتمال كون حربي يحب صفيّة، فالأفضل أن يقال بعدم تبادل تلك العلاقة بينهما. ومن ثمّ اختفى هذا العنصر في الرّواية المذكورة.

على أنّ إدوار الخراط أشار إلى أنّ الحب في مجمل أعمال بهاء طاهر حب ميؤوس مخذول، وفادح الثمن؛ ليس بريئاً ولا طاهراً أبداً. وحتى في حال انفتاحه وتطوّره يجد المؤلّف موقفاً يسدد عليه ضربة قاضية فيموت ذلك الحب.^{٦٦٩} وعلى هذا الأساس، يظهر تدهور علاقة الحبيين في الرّواية الأولى بين الراوي وليلى. ويرجع سبب ذلك إلى مأساة موت عمه وابن عمه: الحادثة التي تعذر عليه أن يقبلها ويفهمها ناهيك عن أن يستوعبها. وقبل ذلك كانت ليلي تحبّ الراوي وكان هو الآخر يحبها. لولا الحادثة الكئيبة التي تشتت أحلامهما، فتعثرت علاقتهما وأصبحت مجرد صديقين، أو زعماً ذلك فقط، لكن في الحقيقة استمر تبادل الحب بينهما مع أنّ العلاقة تعثرت فيما يبدو. فقد بذل الراوي جهداً جهيداً

^{٦٦٨} بهاء طاهر. ٢٠٠١م. نقطة النور. ص. ٤٣.

^{٦٦٩} بهاء طاهر. ١٩٨٥م. قالت ضحى. ص. ٩.

في حماية ليلي.^{٦٧٠} عندما كادت تصاب بالجروح في ميدان التحرير أثناء ثورة الطلبة.

وقد أثرت حادثة الموت كثيرا في سلوكها وأفعالها وانفعالاتها. أو على الأحرى أن يقال: إن تأثير الحادثة على الراوي قد أثار عليها. فقد انضمت إلى الثورة التي قام بها الطلبة للهروب من أزمة الحب.^{٦٧١} وقد أخبر سمير الراوي ما يحدث ويرى أن على الراوي أن يكلمها للرجوع، ففعل ذلك. حينئذ صرّحت له بأنها لم تعد تحبه. تقول في هذا الصدد: "أنا لست ملك سمير. ولست ملكك ولا ملك أحد. أنت لم تفرض نفسك عليّ. تمام يا أفندم. أنا التي فرضت نفسي عليك... اليوم فقط اكتشفت أنني لم أكن أحبك وإنما كنت أحب غروري."^{٦٧٢} فأجاب بأنه فهم مقصودها. وأخيرا ما استطاع إقناعها على الرجوع للبيت فاندفع يحميها حين تأزمت الثورة وانحالت الشرطة بضربات عنيفة على الطلبة. فتركه الاحتدام بالجروح حتى أخذ إلى المستشفى للمداواة^{٦٧٣}

ويظهر تدهور علاقة الحب في الرواية الثانية بين الراوي المشارك وضحي. ينتمي الراوي إلى الطبقة البرجوازية الصغيرة بوصفه موظفاً صغيراً، في حين تنتمي ضحي إلى الطبقة الأرستقراطية. وعندما جاءت إلى مكتبه لتعمل هناك أحبها. ثم بادلتها الحب فيما بعد. إلا إن هناك عائقاً في هذا الحب منذ البداية. إذ إن ضحي امرأة متزوجة، ينتمي زوجها إلى الطبقة الأرستقراطية أيضاً. وقد قضى المؤلف على هذا الحب في لحظة اكتماله في سفرهما معاً إلى روما للدراسة العليا على المنحة الدراسية. وقد افترقا لأنها أجهضت.^{٦٧٤} وربما هذا الذي أيقظها من نومها العميق، فتذكرت كونها متزوجة وقررت أن تنهي العلاقة اللاشعورية بينهما ففعلت ذلك.

ومما يشير إلى انتهاء العلاقة بين ضحي والراوي قول ضحي للراوي: "متى ستعرف أننا انتهينا.. نهائياً؟ ثم استدارت

^{٦٧٠} بجاء طاهر. ١٩٨٥م. شرق النخيل. ص. ١٠٢.

^{٦٧١} المصدر نفسه. ص. ٨٧.

^{٦٧٢} المصدر نفسه. ص. ٩٩.

^{٦٧٣} المصدر نفسه. ص. ١٠٣.

^{٦٧٤} بجاء طاهر. ١٩٨٥م. قالت ضحي. ص. ٨٤.

بسرعة وخرجت من المكتب.. انتهت من ذلك المكتب، ومني إلى الأبد.^{٦٧٥} وذلك لما أرادت انتهاء العلاقة بينهما بشكل أكثر وضوحاً، انتقلت إلى مكتب آخر. وخاطبته فيما يتعلق بهذا النقل: "أرجو أن يأتيك مكاني زميل أو زميلة أفضل مني.. فقلت لماذا؟ وأين تذهبين أنت؟ فقلت بنفس الطريقة العابرة: أنا نقلت من هنا.^{٦٧٦} كما يقرّ الراوي المشارك لنفسه هذه الحقيقة في مونولوج: "نحن انتهينا، ألا تفهم؟.. ظهر شبح واختفى فما أهمية ذلك؟"^{٦٧٧}

وفي بداية انتهاء العلاقة بين الراوي وضحي كان الروي يأمل على أن ترجع إليه ضحي لكن هذا لم يحدث. ويقول في ذلك: "بدأت تلك الأعراض الأولى التي عشتها من قبل: الأمل في أن ذلك شجار مثل غيره، انسحاب عابر سينتهي بأن تطرق بابي من جديد... ولكننا لم نعد حتى نلتقي."^{٦٧٨} وقبيل انتهاء الرواية وعدته بأنها ستعود.^{٦٧٩} وربما تعني بذلك رجوع علاقتهما كما كانت. إلا إن هذا لا يكون مقبولاً في المجتمع الذي يعيشان فيه إلا إذا طلقها زوجها؛ حينئذ تكون مع حبسها الراوي.

وينطلق الباحث من هنا إلى الرواية الرابعة إذ أشير إلى اختفاء هذا العنصر في الرواية الثالثة. ويتجلى بين الراوي الصحفي ومنار في جانب، وبين إبراهيم وشادية في جانب ثانٍ، وبين ألبرت وبريجيت في جانب ثالث. التقى الراوي بمنار في مقر الصحافة الذي يعملان فيهما فتبادلا الحب. تنامت علاقة الحب بينهما مع كون منار تفوّقت عليه في الظروف الاقتصادية.^{٦٨٠} وقد ولدت هذه العلاقة طفلين: خالد وهنادي. وتدهورت علاقة الحب بينهما بدون سبب معيّن. حاول الراوي أن يعيّن بذرة الخطأ في تهدّم علاقتهما عندما كان في بلد المهجر ولم يستطع ذلك مهما حاول. ويرى إبراهيم عن رأيه في قوله: "أقصد رأيي أنك أنت ومنار كنتما تبحتنان عن حب كامل ومستحيل في هذه الدنيا،

^{٦٧٥} بجاء طاهر. ١٩٨٥م. قالت ضحي. ص. ١٠٣.

^{٦٧٦} المصدر نفسه. ص. ١٠٣.

^{٦٧٧} المصدر نفسه. ص. ١٠٢.

^{٦٧٨} المصدر نفسه. ص. ٨٦.

^{٦٧٩} المصدر نفسه. ص. ١٢٧.

^{٦٨٠} بجاء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ١٠.

لهذا كنتما تتشاجران لأنفه خيبة أمل تبعكما عن هذا الكمال المستحيل.^{٦٨١} كما كان الطلاق من الأسباب التي دعت به إلى اختيار الغربية الاختيارية. ويقول الراوي في هذا الصدد: "ولم أقل لإبراهيم إنني رحبت بذلك الإبعاد لكي أهرب من مصر كلها بعد الطلاق."^{٦٨٢}

وكانت حالة إبراهيم وشادية تختلف عن حالة الراوي ومنار. قد تبادلوا الحب هما الآخران. وكانا زميلين في مكان المهنة: الصحافة أيضاً. يعملان في الصحافة نفسها التي يعمل فيها الراوي. ولسبب اهتماماته السياسية، ولأنه شارك في المظاهرة والتهافتات ضد الحكومة الحاكمة في الستينيات اعتقل ضمن من اعتقلوا. وعندما طالت سنوات الاعتقال كتب لشادية إنه حرّرها من أي ارتباط به. وأنها إن أرادت انتظاره "فهي حرة في أن تسلي نفسها بالخروج مع من تشاء من الرجال."^{٦٨٣} فأفسدت علاقتهما الغرامية هذه العبارة المشؤومة. وبالتالي تركته وتزوجت من سي عبد اللطيف، صرّاف الصحيفة. وقد تأثرت حادثة الفراق هذه على إبراهيم بدرجة أنه بقي طول عمره عازباً حتى أتمت المنية في بيروت أثناء مذبحه صبراً وشاتيلاً.^{٦٨٤} وربما يرجع سبب ذلك إلى أنه أحبها حقاً، ولم يجب في حياته واحدة مثلما أحبها.

على أنّ علاقة الحب بين سالم ولبنى في الرواية الخامسة تختلف عن علاقة الحب بين الراوي ومنار، وألبرت وبريجيت. وتشبه مثلها بين إبراهيم وشادية في كونهما لم تقودهما تلك العلاقة إلى الزواج. التقى سالم بلبنى في الجامعة في كلية الحقوق. ويذكر القارئ هذا باللقاء الراوي المشارك وليلى في الرواية الأولى.^{٦٨٥} وبعد أن نامت العلاقة سدّد المؤلف عليها ضربة قاضية. ابتلى سالم بأزمة نفسية. وجعل هذه الأزمة تزوره أثناء ممارسة الحب. فبعد أن حلّقاً في فضاء الحب أهبط بمهما إلى الأرض. فبدأ سالم يشتم والد لبنى وأمّها ودادة سنية وعم حسن بعبارات فاحشة. وقال كلاماً غريباً عن أفراد

^{٦٨١} بجاء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ٢٧.

^{٦٨٢} المصدر نفسه. ص. ٣٤.

^{٦٨٣} المصدر نفسه. ص. ٣٦.

^{٦٨٤} المصدر نفسه. ص. ٢١٦.

^{٦٨٥} بجاء طاهر. ١٠٩٨٥م. شرق النخيل. ص. ٤١.

أسرته بدون وعي^{٦٨٦}. وأنهى المؤلف ما بينهما من علاقة الحب من خلال هذه الحادثة.

ومع أن سالم في حالة من اضطراب التوازن العقلي بعد الحادثة، إلا إنه يستطيع أن يتذكر ما حدث قبل حادثة الشتم والسباب. لكنّه لا يستطيع أن يتذكر الحادثة بالضبط.^{٦٨٧} وقد كان لفرافهما أثر كبير في تطور شخصية كل واحد منهما. حيث أصيبت لبني بالانقيار العصبي وعولجت في مصحة في روما.^{٦٨٨} كما تأزمت حالة سالم التفسية حيث عانى كثيراً روحياً وجسدياً. وعولج في حيّه، حي السيدة زينب، بجلسي الكهرياء. وبعد ذلك عولج أيضاً بمزيج من الأعشاب من العطار، جار الباشا كاتب عم مرعي،^{٦٨٩} وبالْحِجَاب الذي يحتوي على أدعية من صديق جدّه الملقب بالسنايري.

وقد لاحظ الباحث في الرواية السادسة أن علاقة الحب بين محمود عزمي عبد الظاهر ونعمة السمراء تشبه التي سبقتها في الرواية الخامسة في كونهما لم تقودهما العلاقة إلى الزواج مع شدة الحب بينهما. كانت جارية اشتراها أبوه في سوق الجلابين طفلة صغيرة لتساعد أمه في الأعمال البيتية، ثم وهبها له عندما كبرت. تريباً معاً ولعباً معاً وهما صغيران وكانت صاحبه وأقرب إليه من أخيه سليمان.^{٦٩٠} ووقع كل واحد منهما في حب الآخر طبيعياً عندما كبرا.

انتهت العلاقة بعد هروب نعمة من البيت فجأة. ولا يستبعد أن يكون دافعها في فعلها هو حوارها معه في المساء الذي يسبق فرارها. سألته أثناء الحوار قائلة: "سيدي محمود هل تحبني؟" زجرها قائلاً: "ما هذا الكلام الفارغ يا بنت؟ لو عدت إلى هذا الكلام سأرميك في الشارع!"^{٦٩١} وقبل أن تعود إلى الكلام الذي سيجعل سيدها إلى الرمي بها في الشارع، اختفت في اليوم التالي. والمفارقة أنه حاول أن يعثر عليها أو على ما يبدله عليها لكن فشلت محاولاته. وبهذه

^{٦٨٦} بماء طاهر. ٢٠٠١م. نقطة النور. ص. ١٣٩.

^{٦٨٧} المصدر نفسه. ص. ١٤٢.

^{٦٨٨} المصدر نفسه. ص. ١٩٧.

^{٦٨٩} المصدر نفسه. ص. ١٧٥.

^{٦٩٠} بماء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ٨٣.

^{٦٩١} المصدر نفسه. ص. ٨٥.

الطريقة قضى المؤلف على علاقة الحب بين هذين الحبيين.

وتجدر الإشارة إلى التشابه أو عدمه في تجسيد الروايات العناصر التي تشكل اضطراب العلاقات الإنسانية وبالتالي انخيارها. لقد أشار بيتروف إلى أنّ انخيار العلاقات البطريكية^{٦٩٢} محور من محاور الواقعية. ويمكن امتداد حدود العلاقات التي تنهار لتشمل العلاقات الإنسانية عموماً. والنظرة الركيّزة على الروايات المدروسة تُبرز أنّ بهاء طاهر حاول عبر تصوير تصرّفات شخصياته وأفعالها وانفعالاتها أن يرصد تدهور العلاقات الإنسانية المختلفة التي تشكلها وتحددها الظروف الحيّاتيّة الاجتماعيّة والعاطفيّة.

وتأسيساً لما سبق، تتشابه خمس روايات في تشخيص الشجار الزوجي بوصفه مظهراً من مظاهر انخيار العلاقات الإنسانية. أيّ يتجلى الشجار الزوجي في الروايات كلها ما عدا الرواية الثالثة. في حين تتجلى انخيار العلاقات الأسريّة في الروايات كلها ما عدا الرواية السادسة. ويكتفي تدهور العلاقات الزوجيّة بالبروز في ثلاث روايات: الرواية الثانية، والرابعة، والسادسة. أمّا تدهور علاقة الحبيين وما يتّصل بذلك من تحطيم السعادة وعدم تحقّق أمنيات الحبيين^{٦٩٣} مما يؤثّر في التّكوين الداخلي النفسي للشخصية الروائيّة، فإنّ خمس روايات تتوخّد في تصوير ذلك. ومن ثمّ تستثنى الرواية الثالثة في ذلك.

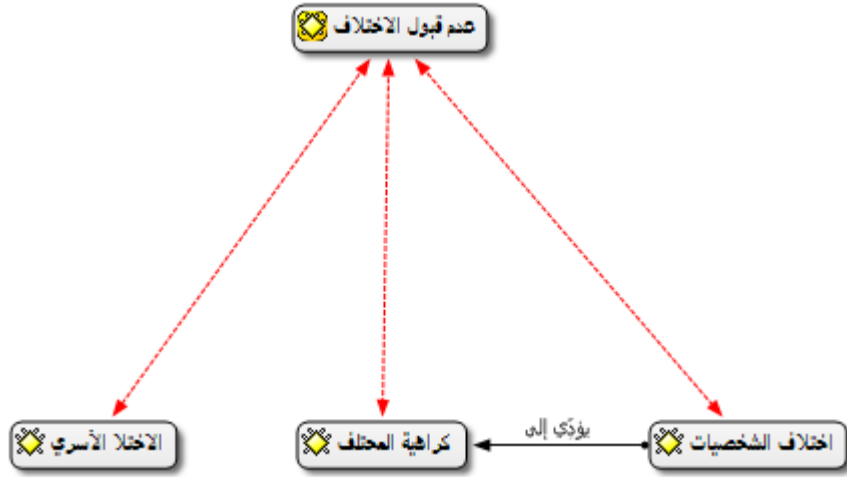
المبحث الثالث: عدم قبول الاختلاف

يتجلى المحور الثالث للواقعية النقدية في: عدم قبول الاختلاف بين الشخصيّات التي اختلفت وجهات نظرها. إنّها تشكّ في شخصيّات تختلف معها في مسألة أو في رأي. وبالتالي تتعامل معها على حذر شديد. وقد أثبتت نتيجة التحليل أنّ عدم قبول الاختلاف صفة داخليّة فكرية تتّصف بها شخصيّات الرواية. كما يظهر ذلك في حواراتها المتبادلة بينها وفي أفعالها وردود أفعالها وانفعالاتها وسلوكها. ويتفرّع عدم قبول الاختلاف إلى عناصر ثلاثة. ويكوّن مجموع هذه العناصر

^{٦٩٢} س. بيتروف. ٢٠١٢م. الواقعية النقدية في الأدب. ص. ١٤٩.

^{٦٩٣} بهاء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ١٩٢.

الثلاثة: عدم قبول الاختلاف. وتمثّل هذه العناصر في: اختلاف الشخصيات أولاً، وكراهية المختلف ثانياً، والاختلاف الأسري ثالثاً. ويأتي الرسم التوضيحي ١٠ ليزيد بياناً على ما سبقت مناقشته كالآتي:



الرسم التوضيحي ١٠: عدم قبول الاختلاف ومكوناته

والملاحظ من الرسم التوضيحي ١٠ أنّ محورَ عدم قبول الاختلاف يتشكّل من ثلاثة عناصر: اختلاف الشخصيات، وكراهية المختلف، والاختلاف الأسري. وهذا معنى وجود الأسهم التي خطت من المحور إلى العناصر. كما أنّ وجود سهم بين العنصر الأول والثاني يعني وجود علاقة بينهما. وأنّ تعبير: "يؤدّي إلى" إشارة إلى أنّ اختلاف الشخصيات يكون علّة لكراهية المختلف. ونظراً إلى أنه لا يوجد أي سهم مخطط بين العنصر الثاني والثالث، فمعنى هذا أنه لا توجد علاقة علة بينهما.

وقد لوحظ أثناء المقارنة بين الروايات المدروسة أنّ عدم قبول الاختلاف بعناصره وأبعاده الثلاثة يتجلى في جميع الروايات ما عدا الرواية الخامسة. وإضافة إلى ذلك أنّ الترميز الحر أو العنصر الذي يحظى بنصيب الأسد في كثرة الاقتباسات التي تشير إلى عدم قبول الاختلاف هو اختلاف الشخصيات؛ فقد ظهر ٢٦ مرة. كما تجلّى في جوانب متعددة في روايتين المذكورتين في المطلب الأول لهذا البحث. وبليه كراهية المختلف حيث يتجلى ٢٠ مرة في ثلاث روايات المشيرة مسبقاً. ويأتي في المرتبة الأخيرة رمز الاختلاف الأسري الذي برز ١٢ مرة في ثلاث روايات. وفيما يلي جدول المقارنة يوضّح ما

الجدول ٥: محور عدم قبول الاختلاف

	P 6	P 5	P 4	P 3	P 2	P 1	الروايات الرموز
12	0	0	0	2	2	8	الاختلاف الأسري
26	3	0	10	0	13	0	اختلاف الشخصيات
20	10	0	3	3	0	4	كراهية المختلف
58	13	0	13	5	15	12	المجموع الكلي للعناصر في الروايات

مؤشرات الجدول:

P1 الرواية الأولى؛ شرق النخيل

P2 الرواية الثانية: قالت ضحى

P3 الرواية الثالثة: خالتي صفية والدير

P4 الرواية الرابعة: الحب في المنفى

P5 الرواية الخامسة: نقطة النور

P6 الرواية السادسة: واحة الغروب

يبدو أنّ نسبة التفاوت في الرواية الثانية تشير إلى كثرة الاختلافات بين الشخصيات جرياً وراء المصالح الشخصية. وكان السبب في تسجيل هذه النسبة العالية هو أنّ الرواية عمّقت تناولها لهذا العنصر لتأكيد حضور البُعد الداخلي للشخصيات، والذي يجعلها تكافح في سبيل حماية مصلحتها الشخصية. فنكون في سلمٍ مع الذي يؤيِّدها؛ وتعارض الذي يعارضها بكل ما أوتيت من قوة. وهذا الذي حاولت شخصيات الرواية الثانية تجسده.

وقد تساوت النسبة في الرواية الرابعة في ظاهرة اختلاف الشخصيات والرواية السادسة في كراهية المختلف. ذلك لأنّ من الموضوعات الجانبية التي تطرقت الرواية الرابعة إليها هو الاختلاف بين الشخصيات، والذي يؤدي إلى نتيجة سيئة. فالاختلاف بين الأمير والراوي الممثل حرّض الأول إلى أن يجعل الثاني يفقد وظيفته. كما أفقد الأمير بريجيت – حبيبة

الراوي - وظيفتها،^{٦٩٤} لا لسبب إلا لأنها حييته.

أمّا بالنسبة لكثرة الإشارات إلى ظاهرة كراهية المختلف في الرواية السادسة فيبدو أنّ سبب ذلك هو إرادة بهاء أن يشير إلى حضور هذه الظاهرة ومدى تأثيرها النفسي في الشخصيات التي تسكن في الواحة. كما أنّ كثرة الاقتباسات لهذه الظاهرة تعزّز سوداوية الرؤية لتلك الرواية. الأمر الذي يظهر بوضوح في سلسلة الأحداث الفجيعة التي منها: موت مايكل زوج كاثرين الأول، الموت الجماعي بسبب الثورة العربية، الحروب الأهلية بين الشرقيين والغربيين في الواحة، انكسار ساق إبراهيم الشاويش، وانتحار مليكة وانتحار البطل المهزوم للرواية: محمود عزمي عبد الظاهر.^{٦٩٥}

ولعل بعض جوانب سيرة الكاتب الذاتية أثر في كثرة الاقتباسات والإشارات إلى ظاهرة اختلاف الشخصيات وكراهية المختلف. ذلك أنّ بهاء فقد موقعه القديم في البرنامج الثقافي الذي كان يسمى البرنامج الثاني،^{٦٩٦} وفقد كذلك عضويته في لجان القراءة والمسرح. ومقابل هذا، واجه الحصار والعناء والغربة والعذاب، وما إلى ذلك مما فرضه النظام وفرضته السلطة آنذاك. كل ذلك لوجود اختلاف بينه وبين الحكومة. ولأنّ الحكومة كانت تكرهه، جعلته يفقد مصدر رزقه. وكان كل ذلك في عصر الانفتاح الذي عرف بملاحقة مشهورة للمثقفين.^{٦٩٧} ويبدو مما سبق أنّ تصوير بهاء طاهر البعد الداخلي للشخصيات، من حيث عدم قبولها للاختلاف، يدلّ على انتمائه إلى الواقعية النقدية. وذلك من خلال مسرحة الأحداث التي تنم عن مدى إصرار الشخصية على عدم قبول الاختلاف، الذي يكوّن محوراً من محاور الواقعية النقدية.

وإنّ السبب في خلو الرواية الخامسة من أي اقتباس للعناصر الثلاثة كلها هو أنّ الرواية لا تبرز الاختلاف الأسري بين الشخصيات التي تكون بينها علاقة أسرية. ولا تجسد الاختلاف بين الشخصيات التي لا توجد بينها أي علاقة أسرية أو زوجية. ثم إنّ الرواية لا تتناول كراهية المختلف؛ وهي كراهية شخصية تختلف عنها في أمر ما بدرجة أنّها تتمنى لها

^{٦٩٤} بهاء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ٢٤٣.

^{٦٩٥} بهاء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ٢٧، ٤٣، ١٢، ١٨١-١٨٢، ١٠٤ و ١٣١، ١٨٥، ٢٨٧.

^{٦٩٦} Gikandi, S. "ed". 2003. *Encyclopedia of African Literature*. P. 741.

^{٦٩٧} لانا محمد خير مامكغ. ٢٠٠٢م. "بهاء طاهر قصصيا وروائيا". ص. ١.

الخراب والهلاك. وكان سبب قلة الاقتباسات في الرواية الثالثة هو الحجم الصغير للرواية وتركيزها، في تصوير الشخصيات، على تدهور العلاقات الأسرية، وذلك في محور اضطراب العلاقات الإنسانية.

المطلب الأول: اختلاف الشخصيات

يتجلى هذا البعد في ثلاث روايات: الثانية والرابعة والسادسة. ويتمثل اختلاف الشخصيات في الرواية الثانية في ثلاثة جوانب: في اختلاف الراوي المشارك الذي لم يسم وصديقه حاتم أولاً، وفي اختلاف الراوي المشارك مع عبد المجيد ثانياً، وفي اختلاف سلطان بك مع الراوي ثالثاً. ويتجسد هذا الاختلاف بين إبراهيم المحلاوي والراوي المشارك الذي لم يسم هو الآخر، وبين الأمير حامد والراوي وبريجيت في الرواية الرابعة. كما تصوّر الرواية إضافة إلى ذلك اختلاف الأمير التقدّمي مع الراوي المشارك واختلافه مع بريجيت.

ويتجلى اختلاف الراوي المشارك مع حاتم في خيانة حاتم ضد الراوي في الرواية الثانية. وكانت علاقة الصداقة والزمانة بينهما جيّدة، بغض النظر عن تفوق حاتم على الراوي في الوظيفة. ومما يشير إلى جودة العلاقة بينهما انقاذ الراوي حياة حاتم ذات يوم أثناء إحدى المظاهرات التي شاركها فيها. يقول الراوي عبر الاسترجاع: "ولكني لسبب كنت أول من رأى نافذة زرقاء تفتح وجنديا يطل بزيه الكاكي ووجهه الأحمر وفي يده بندقية وكان حاتم إلى جوارى ورأسه ترتفع فوق بقية الرؤوس فدفعته بجسمي كله وسقطنا على الأرض معا وكشطت الرصاص بالكاد جزءاً من حاجبه لكنها استقرت على الأرض."^{٦٩٨}

يشير الاقتباس السابق إلى مدى قوة علاقة الصداقة بين الراوي وحاتم. لكن اختلافاً بسبب ضحى. فبعد افتراق ضحى مع الراوي وتركها مكتبه، بدأ حاتم يطوّر رغبة تجاهها. وفعل ذلك بغضّ النظر عن معرفته بالعلاقة التي كانت موجودة بينها وبين صديقه. وربما رأّت ضحى أعراض تلك الرغبة عنده، فسهلت له طريق الوصول إليها حين دعتّه إلى بيتها

^{٦٩٨} بماء طاهر. ١٩٨٥م. قالت ضحى. ص. ٢٠.

ليعب القمار مع أناس آخرين. حيث بدأت تدبر بيتها للقمار بعد الافتراق مع الراوي. وذات يوم رأى الراوي ضحى في مكتب حاتم وكأنه يقبلها. يقول الراوي: "ولكن عندما فتحت باب مكتبه فجأة كان يميل على خدها ويقبلها أليس كذلك؟ ولما رأيت تظاهر أنه يهمس في أذنها. لم يكن يهمس في أذنها ولكنه كان يقبلها."^{٦٩٩}

وكان حاتم يشعر دائما، بعد وقوع هذا الحدث، أنه خان صديقه بطريقة ما. كما يقرر ذلك للراوي: "انتظرت طويلا أن تأتي لتعاتبني ونصفي تلك المسألة. حاولت أنا أيضا أن أكلمك وأن أصفها ولكن كان حجل يمنعني. شعور بأنني خنتك بطريقة ما..."^{٧٠٠} كما بدأ يفكر أنه نوع من العار أن يسبب الاختلاف بينهما انتهاء علاقتهما على مائدة القمار. ويقول في هذا الصدد: "فكرت فيك وفكرت في نفسي وفي أحلامنا القديمة. تصورت أن ينتهي كل شيء هكذا على مائدة قمار.. وقال لي شيء في داخلي إن كل شيء قد انتهى."^{٧٠١} ومما يشير إلى مدى الاختلاف الذي نشب بينهما ما يقول الراوي في حوار داخلي: "كانت علاقتي بحاتم مقطوعة تقريبا منذ اليوم الذي شاهدته فيه يقبل ضحى."^{٧٠٢}

ويظهر اختلاف عبد المجيد مع الراوي في كونهما ينتميان إلى إيديولوجية سياسية مختلفة. ومع كون عبد المجيد زوج شقيقته، إلا إن ذلك لم يمنع نشوب الاختلاف بينهما من أجل الدفاع عن المصلحة الشخصية. كان الراوي فيما يبدو على اتفاق مع سيد القناوي وأفكاره الإصلاحية في الوزارة. وكان عبد المجيد ضد أفكار سيد. ولذا صنف الراوي في خانة العناصر السلبية. مع أنه كان يسميه: عميد الأسرة والبلد قبل الزواج مع شقيقته، كما يقول الراوي: "وكان عبد المجيد بعد شهر من الزواج قد كف عن تسميتي عميد الأسرة والبلد وصنفتني في خانة العناصر السلبية، في مزاج خفيف أولا ثم كلقب اعتمده لي بصفته اشتراكيا."^{٧٠٣}

^{٦٩٩} بقاء طاهر. ١٩٨٥م. قالت ضحى. ص. ١٠٢.

^{٧٠٠} المصدر نفسه. ص. ١١١.

^{٧٠١} المصدر نفسه. ص. ١١٢.

^{٧٠٢} المصدر نفسه. ص. ١٠٤.

^{٧٠٣} المصدر نفسه. ص. ١٠٤.

ومما يشير إلى مدى اختلاف الراوي مع زوج شقيقه ما قال الراوي له يوما ما، لما شكى إليه بأنه يعرضه للخطر بسبب علاقته بسيد القناوي. وأنه يهدد مستقبله السياسي لأنّ الكل يعرف أنه نسيبه. حينئذ قال له الراوي: "يا سيد عبد المجيد في ستين داهية مستقبلك السياسي. أعتقد أنه لو ضاع مستقبلك السياسي فسيصبح مستقبل البلد أحسن. فالتفت إلى سميرة وقال بلهجتة المتشكية سامعة؟"^{٧٠٤} وحاول أن يضّرّ بالراوي لما دخل إلى غرفته يبحث عن أي دليل يدانيه. لكن لم يكن الحظ معه فضبطه الراوي متلبساً بالجريمة، فهاجم عليه حتى طرده من البيت.^{٧٠٥}

ويلاحظ بالنسبة لاختلاف سلطان بك مع الراوي أنّ الأول هو وزير الوزارة التي يعمل فيها الثاني موظفاً. كان رئيس الذين يشاركون في الفساد الإداري والسياسي وأخذ الرشوة. وكانت ضحى تعمل له سكرتيرة خاصة يتقاسمان الرشوة عند الحصول عليها. بدأ اختلاف سلطان بك مع الراوي منذ سماعه بتأييد الراوي لسيد القناوي في مكافحته ونضاله ضد الظلم الإداري والسياسي في الوزارة. حاول سلطان بك قرب انتهاء الرواية أن يدعو الراوي ويهدده بالفصل عن العمل عبر إلغاء الإدارة التي يعمل فيها إن لم يتوقف عن تأييده لسيد في نضاله ضدّ الظلم.

ولاحظ الباحث أنّ القارئ يشعر بغرابة الجوّ في المشهد الذي يسجّل التهديد السابق. فلم يهتم سلطان بك بدخول الراوي إلى مكتبه إلا بعد مرور دقائق وتظاهر أنه مشغول. وربما أراد أن يحتقره ولذا تجاهله. ثم دعاه بلقب يشبه الذي يدعو عبد المجيد: "العناصر المخربة".^{٧٠٦} وأكّده أنه يفكر في إلغاء التنظيم الذي يعمل فيه إن لم يقطع صلته بالعناصر المخربة للبلد والتي تعطلّ الإنتاج الذي تعمل سياسة الدولة على زيادته.^{٧٠٧}

وعندما يجوّل الباحث كاميرة المناقشة إلى الرواية الرابعة، يلاحظ أنه يتجلى اختلاف إبراهيم الخلاوي مع الراوي في كونهما ينتميان إلى مبادئ سياسية مختلفة. وإضافة إلى ذلك كانا قد تزاملا في أول الأمر بوصفهما محررين في صفحة

^{٧٠٤} بماء طاهر. ١٩٨٥م. قالت ضحى. ص. ١١٦.

^{٧٠٥} المصدر نفسه. ص. ١٢٣.

^{٧٠٦} المصدر نفسه. ص. ١١٧.

^{٧٠٧} المصدر نفسه. والصفحة نفسها.

الأخبار الخارجية أيام الشباب. كان إبراهيم ماركسياً متحمساً يقول إنّ الراوي مثالي وحالم، وكان رأي الراوي فيه يتلخص في أنه متحجر وبعيد عن روح الناس.^{٧٠٨} كما أنّ إبراهيم اشتراكي. وهذا هو مصدر اختلافهما الذي يؤكّد من مناقشاتهما الدائمة والتي تجرى بشكل يوحى بأحما يتشاجران دائماً.

وقد استمرّ هذا النقاش وهذا الاختلاف حتى بعد افتراقهما لمدة طويلة، بعد لقائهما في المدينة التي اختارها الراوي منفى اختيارياً له. واستمر ذلك النقاش بدرجة أنّ الراوي يقول عن انفعال إبراهيم: "ولكن مرة أخرى ونحن في دوامة النقاش توقف إبراهيم فجأة وسألني: اسمع.. بم تحاول أن تتعني؟ أن أغير الآن رأيي وأنضم إليك؟ في هذا العمر؟ الأفضل أن أنتحر!"^{٧٠٩} كانت هذه طريقتهما في النقاش منذ أن عملا معا في الصحيفة. يقول الراوي: "وكان إبراهيم يحرص على أن أرى ابتسامته وهو يتطلع إلى تلك اللوحة متظاهرا بالاستغراق في التأمل فأثور ويبدأ بيننا الجدل والشجار."^{٧١٠}

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الراوي أكّد عدم كون علاقة الصداقة بينهما حميمة لسبب الاختلاف بينهما. يقول الراوي: "كنت سعيدا بالفعل لرؤيته رغم أننا لم نكن صديقين حميمين في أي وقت، حتى عندما تزامننا أول مرة كمحررين في صفحة الأخبار الخارجية أيام الشباب."^{٧١١} كما يقول إبراهيم: "ماتت أشياء كثيرة يا صديقي خلال هذه السنين ولم يعد للعداوة معنى."^{٧١٢} كل ذلك يؤكد حضوراً قويا للاختلاف الذي كان يقع بينهما. والذي، بطبيعة الحال، يتحول إلى نوع من العداوة، كما يبدو من المقطع. ومع ذلك لا يأخذان الخلاف مع الجدل. فقد صدّق الراوي إبراهيم في قوله: إن الموت محاسب العداوة بينهما. ويقول الراوي في ذلك: "ورغم أننا لم نتفق على شيء أبدا فقد كان صادقا تماما عندما قال محاسب الموت أسباب العداوة بيننا. فما بيننا في خلال أيام قلائل نوع من التقارب والود الحقيقي رغم استمرار الخلاف.

^{٧٠٨} بقاء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ٢٣.

^{٧٠٩} المصدر نفسه. ص. ١٠٠.

^{٧١٠} المصدر نفسه. ص. ٢٣.

^{٧١١} المصدر نفسه. ص. ٢٢-٢٣.

^{٧١٢} المصدر نفسه. ص. ٢٢.

وكأنما كنا في عمق دفين من نفسينا لا نأخذ كل ذلك الخلاف مأخذ الجد...^{٧١٣}

واكتشفت الدراسة اختلافاً آخر بجانب هذا الاختلاف في الرواية نفسها. ويتجلى هذا الاختلاف في مواجهة بين الراوي والأمير حامد التقديمي بعد فشل إصدار الصحيفة العربية التي أراد وخطط تحمّل مسؤولية الإنفاق لها، قرّر أن يواجه من اكتشف سرّه وأطلع يوسف المصري الذي عزم على العمل معه في تلك الصحيفة على ذلك.^{٧١٤} فأقطع التواصل بينهما وفعل يوسف الشيء نفسه. حيث حاول جاهداً الاتصال بكليهما، إلا أنّ المحاولات فشلت. وأقرّ برنار للراوي فيما بعد بأنه أخطأ في اكتشاف سرّ الأمير وإطلاع يوسف على ذلك، إذ إنّ مثل "هؤلاء الناس لا يحبون أن يكتشف عنهم أحد أي شيء، والأفضل إذا اكتشف أحد شيئاً أن يصمت!"^{٧١٥}

وبالتالي فصل الأمير الراوي عن عمله، عبر استغلال نفوذه ضد الراوي. ومما يشير إلى ذلك رسالة استلمها من مقر صحيفته في مصر تقول: "نظراً لما قرّره مجلس الإدارة من ضرورة خفض النفقات تنفيذاً لتوجيهات السيد... فقد تقرر إلغاء وظيفة المراسل الصحفي في مدينة... على أن يتم تنفيذ هذا القرار خلال شهر من تاريخه. توقيع، عن رئيس مجلس الإدارة".^{٧١٦} الأمر الذي دفع الراوي الصحفي إلى العزم على تصفية الحسابات معه. إلا إنه ماستطاع ذلك إذ إنّ الأمير ما أعطاه فرصة لمقابلته ناهيك عن تنفيذ نيّته. ومن ثمّ قاده اليأس والإحساس بالهزيمة إلى مصير مجهول أو بالأحرى إلى الانتحار في أغلب الظنّ.^{٧١٧}

ولم يقتصر أخذ ثأر الأمير حامد - على جريمة اكتشاف سرّه - على الراوي الصحفي فقط، بل شمل بريجيت كذلك. فصلها عن وظيفتها في شركة سياحية في تلك المدينة التي اختارتها مكاناً لغربتها الاختيارية. وقبل وقوع ذلك عرض عليها أن تكون من خدمه. وفعل ذلك بلباقة: عرض عليها في البداية أن تكون مدرّسة خاصة له تدرّسه اللغة الفرنسية.

^{٧١٣} بقاء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ٩٩.

^{٧١٤} المصدر نفسه. ص. ١٧٢-١٧٤.

^{٧١٥} المصدر نفسه. ص. ٢٠٨.

^{٧١٦} المصدر نفسه. ص. ٢٤٢.

^{٧١٧} المصدر نفسه. ص. ٢٥٤.

قبلت ودرّسته مقدمات اللغة الفرنسية بوصفه مبتدئاً كما ادّعى. إلا إنها لاحظت أنه ليس مبتدئاً، بل يجيد اللغة بالفعل. وأعطاه المبلغ الشهري الذي تتقاضاه من الشركة بعد انتهاء الدرس. ردّته وبالتالي رفضت ذلك العرض.^{٧١٨} وهذا هو الذي جعله يفصلها عن وظيفتها.

ومما يشير إلى فصل بريجيت عن وظيفتها ما تقوله للراوي: "منذ أيام قال لي المدير إنه لم يعد يستطيع استقبائي في الشركة، لأن الشرطة سألته عن تصريح العمل. نصحني أيضاً ألا أبحث عن عمل آخر في المدينة لأنه سيكون هناك باستمرار من يسأل عن تصريح العمل."^{٧١٩} وقادتها هذه التجربة إلى الانفصال عن حبيبها الراوي الصحفي ومدينة الغربية، وبالتالي الرجوع إلى النمسا. ويبدو فيما سبق أنّ اختلاف الأمير حامد مع الراوي هو الذي ولّد اختلاف الأمير مع بريجيت.^{٧٢٠}

ويلاحظ أنّ رفض بريجيت لعرض الأمير حامد هو الذي قاده إلى أن يكرّ لها، وللراوي أيضاً، في قلبه شراً، إذ إنه من الشخصيات التي لا تقبل الاختلاف مع شخصية أخرى. وتفضل دائماً أن تكون كلمتها هي التي تمشي. ولا تهتم بنتيجة ما تفعل ما دام أنّها تشبع غزيرتها النفسية وتقهّر الشخصية الأخرى، وتفرض عليها قوّتها وسلطتها ونفوذها. فهي من الشخصيات التي تنعكس الأنانية في بُعدها الفكري النفسي. وربما تلك الأنانية وعدم قبول الآخر أو الاختلاف معه هو الدافع الرئيس الذي دفع هذه الشخصية إلى أن تفصل الراوي الصحفي وحبيبته بريجيت عن وظيفتهما في وقت واحد.^{٧٢١}

ويبدو اختلاف الشخصيات في الرواية السادسة بين شخصية إبراهيم الشاويش وحضرة الملازم اليوزباشي وصفي، وهو الضابط الجديد الذي أتى إلى الواحة ليساعد المأمور ظاهرياً. لكنه يعمل مع النظارة في القاهرة كي يحل محل المأمور

^{٧١٨} بماء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ١٩٥.

^{٧١٩} المصدر نفسه. ص. ٢٤٣.

^{٧٢٠} المصدر نفسه. ص. ١٩٥.

^{٧٢١} المصدر نفسه. ص. ٢٤٣.

محمود بعد أن أدى ما يطلب منه وهو جمع الضرائب. يقتصر الاختلاف في طرف واحد فقط، طرف شخصية إبراهيم، ربما لأجل اختلاف البعد الطبقي والاجتماعي بينهما. حيث إنّ إبراهيم خادم للمأمور، في حين أنّ وصفي ضابط. وكان عند إبراهيم الشاويش ضعف نفسي ناجم عن شعوره بهذا التباعد الطبقي بينهما والذي جعله يعجز عن مواجهة وصفي عندما يعرف أنه ليس أميناً. بل إنّما يخطط ليحل محل المأمور. اكتفى بأنّ تبّه المأمور بخطته المشبوهة. وكان "كل الجنود يشتكون منه. هو ليس إنساناً طيباً."^{٧٢٢} ويقول في هذا الصدد: "هو يطمع في كرسيك يا ولدي والشيخ الملعون يشجعه! حذرتك من أنّهما يدبران شيئاً."^{٧٢٣}

ويلاحظ أنّ محمود شعر بأنّ وصفي يخطط له شيئاً لم يتبينه، إلاّ إنه انشغل عنه ربما لتكاثر همومه وأحزانه، فلم يفعل شيئاً في ذلك. ثمّ اكتشفه في نهاية الأمر عن طريق رسالة أرسلت سراً من النظارة في القاهرة إلى وصفي. كان هناك قسم يسمى مديرية النظام الخاص، ويكتفي رئيس قسم هذه المديرية بتوقيع س. ح.

وكان يشكر البيوزياشي على تقريره الوافي، يقول إن معالي المفتش النظارة أعجب كثيراً بدقته وبهتته على نجاحه في كسب ودّ الأجواد وثقتهم، اهتم سعادة المفتش بصفة خاصة بما ورد في التقرير عن تدهور علاقة المأمور بسكان الواحة ومحاولتهم الهجوم على القسم بالبنادق والمغامرة التي أقدم عليها المأمور بإطلاق قذيفة مدفع في اتجاه البلدة دون أن يرجع إلى النظارة أو يبلغها بما حدث، يرى معالي المفتش أن هذه أحداث خطيرة للغاية في اتجاه خاطئ.^{٧٢٤}

وكانت تصرفات وصفي وردود أفعاله تُبطن النفاق. فعندما جاء ولد صغير ورمى بورقة تنبّه المأمور عن تريض أهل الواحة لخروجه ليلاً حتى يقتلونه، يبدو أنّ وصفي لا يعرف شيئاً عن ذلك. لكنّ المفارقة أنه يعمل سراً مع الشيخ صابر، رئيس شيوخ الشرقيين والغربيين كي يأخذ كرسي المأمور ويُعيّن الشيخ صابر عمدة. وكان الشيخ صابر يعامل المأمور بالنفاق أيضاً. يبدو ذلك حينما جاء المأمور إلى قسم الشرطة في عزّ الليل لأنّ النوم استعصى عنه. ولما رأى الشيخ قال له إنه

^{٧٢٢} بهاء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ٢٢٨.

^{٧٢٣} المصدر نفسه. ص. ٢٧٣-٢٧٤.

^{٧٢٤} المصدر نفسه. ص. ٢٧٥.

جاء لمراجعة الحسابات مع وصفي. ولم يجد أي وقتٍ مناسبٍ للقيام بذلك إلا في عز الليل! فإذاً يمكن القول بأنّ اختلاف الشخصيات يمتدُّ من إبراهيم الشاويش ووصفي إلى الشيخ صابر والمأمور ثم إلى الشيخ صابر والمأمور. وكلهم يظن ذلك حتى لا يفضح.

المطلب الثاني: كراهية المُختلف

يتحسد العنصر الثاني لعدم قبول الاختلاف الذي صوّره بماء طاهر في نصوصه الروائية بوضوح في كراهية المُختلف. تتجاوز المسألة هنا مجرد الاختلاف والمواجهة والصراع بين شخصيتين أو أكثر فحسب، بل يوَلّد هذا الاختلاف مأساة تتحسد في موت أو بالأحرى قتل إحدى الطرفين في معظم الأحيان. على أنّ كراهية المُختلف تتجلى في ثلاث روايات: الرواية الأولى، والثالثة، والسادسة.

ويظهر هذا العنصر من الدراسة في الرواية الأولى في أنّ أب الراوي وعمّه كانا في شجار من جانب، ومن جانب آخر يبدو أنّ عمّ الراوي وأولاد الحاج صادق كانا في اختلافٍ لسبب أرض عم الراوي التي يريد أولاد الحاج صادق احتلالها.^{٧٢٥} إنّ العوضى، إحدى أولاد الحاج صادق، يقول إن الأرض أرضه وسيأخذها لأن لديه أوراق تثبت له حق الملكية. فكل منهما يرى نفسه على حق، وأن الآخر على باطل. ومن أجل ذلك يمكن أن ينشب بينهما اختلاف. ويقول الراوي عن أولاد الحاج صادق: "فهم أسياد البلد منذ زمن بعيد، أما جدي فقد صنع نفسه بجهد وفرض أبي وعمي نفسيهما كل بطريقته. ولكن أولاد الحاج صادق ما زالوا يرفضون ذلك في أعماق نفوسهم."^{٧٢٦}

يبدو من الاقتباس أن الاختلاف بينهما قديم. كما أنهم لا يريدون الاعتراف بمكانة جد الراوي، وبمكانة والده وعمه، حيث كانوا أسيادا منذ القديم، ويكرهون بروز مكانة غيرهم في القرية التي يعيشون فيها. ومن ثمّ يتأصل الاختلاف من رفضهم للآخر، ويتمثل ذلك الآخر في جد الراوي ووالده وعمه. ويقول عم الراوي عبر حسين، يشرح موقفه تجاه

^{٧٢٥} بماء طاهر. ١٩٨٥م. شرق النخيل. ص. ٤٧.

^{٧٢٦} المصدر نفسه. ص. ٥٠.

المسألة: "لو مد أحد يده لفرع شجرة فسيقطع يده. كلام الدم في كل مكان والناس، كأنه مولد، ينقلون ما يقوله العوضى وينقلون ما يقوله أبي وكأنهم يتعجلون العراك والفرجة والحكاية جد."^{٧٢٧} وقد أثر الاختلاف في أفراد أسرة الراوي كما يظهر ذلك في الاقتباس الآتي: "وبعد أن اختلف عمي مع أولاد الحاج صادق وتشاجر مع أبي حل في بيتنا صمت ثقيل. كانت فريدة محتفية معظم الوقت وعندما أراها لا أجسر أن أرفع عيني في وجهها."^{٧٢٨} وعندما تأزم الاختلاف واشتدت كراهية العوضى، إحدى أولاد الحاج صادق، ضد عم الراوي، انتهى الأمر إلى مأساة. حيث قتل العوضى عم الراوي وحسين وهما عائدان للبيت بعد صلاة الجمعة.^{٧٢٩}

وتتجسد كراهية المختلف في الرواية الثالثة في اختلاف البك القنصل مع حربي. معنى هذا أن بروز هذا العنصر في الرواية الثانية يقتصر على الشخصيتين المذكورتين. كان بينهما علاقة أسرية وطيدة، كما أشير. وكانا قريبين بكل المعنى الذي تحمله كلمة القرابة. لكن أولاد الحرام نجحوا في أن يوقعوا بينهما عداوة. وتقول والدة الراوي مؤنبة الذين فرّقوا بين حربي والبك القنصل: "كيف تصادف أن فرحة البك الطاغية بمولد نجله حسان لم يكن يوازيها غير غضبته الهائلة على حربي الذي كان من قبل حبيبه وموضع سره؟ كيف وصل الأمر بقنصلنا الطيب، الذي لم يخرج منه العيب يوماً، أن يطرد حربي من حديقة السراي ويأمره ألا يضع فيها بعد الآن قدمه وألا يريه بعد اليوم وجهه؟"^{٧٣٠}

وقد قاد البك وحربي الاختلاف إلى مأساة تتمثل في قتل البك. استطاع حربي أن ينقذ نفسه من شدة الضرب والتجريد والهلاك، فدافع عن نفسه من القتل، وبالتالي قتل البك في هذه المحاولة. وقد سجّلت هذه التجربة مشهداً محشواً بالعنف والحركة الدرامية.^{٧٣١} والظاهر أن هذه الحركة الدرامية العنيفة تثبت مدى قساوة قلب البك، ومدى كراهيته تجاه حربي، التي ولدتها الوشاية والوشاة. كما يمكن النظر إلى قساوته وشدة كراهيته تطوراً للبعد النفسي له بوصفه شخصية روائية.

^{٧٢٧} بماء طاهر. ١٩٨٥م. شرق النخيل. ص. ٤٧.

^{٧٢٨} المصدر نفسه. ص. ٣٦.

^{٧٢٩} المصدر نفسه. ص. ٦٨.

^{٧٣٠} بماء طاهر. ١٩٩١م. خالتي صفية والدير. ص. ٥٩.

^{٧٣١} صلاح فضل. ٢٠٠٣م. أساليب السرد في الرواية العربية. ص. ٧٠.

وربما لاحظ المقدس بشاي هذا التطور واعترف به عندما سمّاه: "الشرير" في الصفحة ١٢٩ من الرواية.

ويزيد عمق كراهية البك لحربي عندما يتوسل إليه بصيغ الأقارب مذكرا إياه ما بينهما من صلو قرابة متينة فيخاطبه في عبارات مثل: "يا جدي، يا خالي، يا والدي..." لكن البك يتجاهل تلك الألقاب الدالة الموحية كلها وينزل على حربي ذلك الكم من التعدي على إنسانيته وكرامته وكبريائه.^{٧٣٢} كما أن تجاهل البك هذه العبارات ودلالاتها يوحي بتجسّد إرادته في تشخيص الهوة الاجتماعية الطبقيّة بينهما: السيّد والتابع. ثم تتهاوى صلات الدم بينهما. وعندما لاحظ حربي ذلك تمسك بجبل تلك الصلات الدموية ولم يرض بقطعها، فأشار إلى أن العار كله في أن يجعل البك الغرباء يخترقون دائرة القرابة بينهما. ولم يكن يلوم العقاب بقدر ما يلوم الغرباء الذين ينتهكون حرمة. والذي يوحي بذلك هو توسّله في قوله: "اقتلني بيدك ولا تترك الغرباء يفعلون ذلك يا والدي.. لا تحملني هذا العار يا جدي.. اقتلني أنت."^{٧٣٣}

وإذا انطلق الباحث من هذه الرواية إلى الرواية السادسة يلاحظ أنّ هذا العنصر الذي هو بصدد مناقشته يتجسّد في جانبين: الجانب الأول هو اختلاف الشيخ صابر، من عشيرة الشريقين مع الشيخ يحيى، من عشيرة الغربيين الذين كانت "المعارك بينهما لا تنقطع."^{٧٣٤} أما الجانب الثاني فهو اختلاف الغربيين مع الشريقين. وكان اختلاف الشيخ صابر مع الشيخ يحيى اختلافاً مبهماً. ومعنى هذا أنّ كلاّ منهما لا يعبر عن الاختلاف والمواجهة بينه وبين أخيه صراحة بل يعبر في نفسه عبر مونولوج يستبطن خلجات نفسه ورغباته النفسيّة.

ومن هنا يبدو أنّ حرص كل واحد منهما في إخفاء ما في نفسه يؤكّد أنّهما لم يبرزا اختلافهما وشجارهما للشخصيات الأخرى كما سبق أن لوحظ في الروايات الأخرى. بل ظلت المسألة سرّية بينهما، القارئ هو الذي يمتلك قدرة معرفة ذلك السرّ الذي تكنه هاتان الشخصيتان. ومما يشير إلى هذا إشارته الضمنية إلى تخلف الشيخ يحيى عنه، لأنه تعلم عند المصريين الذي يجهلون لغتهم. في حين أنه تعلم في جامع الزيتونة في تونس، وهؤلاء يتكلمون لغتهم. فهو يقيم مقارنة

^{٧٣٢} لانا محمد خير مامكغ. ٢٠٠٢م. "بهاء طاهر قصصا وروايات". ص. ١٦٣.

^{٧٣٣} بهاء طاهر. ١٩٩١م. خالتي صغية والدير. ص. ٦٨.

^{٧٣٤} بهاء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ١٢.

بينهما عن طريق غير مباشر، ويجعل نفسه متفوقاً على شيخ يحيى. ويستسلم الشيخ يحيى لمقارنة خصومه في سخرية:

"صدّعت رؤوسنا بحكاية تونس والزيتونة! أنت عالم وأنا جاهل."^{٧٣٥}

وقد حاول الشيخ صابر جاهداً أن يدمر الشيخ يحيى، وأن يعيّره ويخذله أمام الأجواد والشيخ الآخرين. كما أنه يتمنى له الهلاك دائماً، كما يبدو ذلك في حوار داخلي منه: "أسمع نقيق حمارك قادماً من أغورمي وسأعانقك يا يحيى عند وصولك مثلما اعتدت وأنا أحلم أن تتلاشى تراباً بين ذراعي."^{٧٣٦} هاجمه أثناء زواج ابنة أخته مليكة، وهاجمه عندما تركت بيت "زوجها"، وهاجمه بعد خروجها من بيتها وهي غولة قبل أن تنتهي مدة الحداد.^{٧٣٧} لكن فشلت محاولاته فيما يبدو للباحث.^{٧٣٨} ومع أنّ هذه المهاجمات لم تكن سرّية، بل كانت في اجتماعاتهم بحضور الأجواد والشيخ - ولكن بطريقة غير مباشرة - إلا إنّ الهدف منها شيء يُكَنّه الشيخ صابر ولم يكن يريد بشيخ يحيى أيّ خير. وكان ذلك الهدف هو: التدمير والافتتال والموت.^{٧٣٩} وكان الشيخ يحيى يعرف ذلك في نفسه؛ ويحرص على أن تبقى كل تلك التمنيّات من قلب الشيخ صابر أموراً مخفية في نفسه. لا يعبر عنها لكي يسمع غيره.^{٧٤٠}

ومن أسباب اختلاف الشيخين أنّ الشيخ صابر عنده كتاب نبوءات شريفة يقرأها كلما يضم الشيخ مجلس. وبعد الانتهاء من القراءة يقلب بصره بين سامعيه "ويقول كأنما في تشف: اقتربت ساعة النبوءة والحساب.. لم لا، وأنتم تشربون الخمر جهاراً، وتأتون الفواحش ما ظهر منها وما بطن وتقتلون أنفسكم بأيديكم؟ لم لا يحق عليكم العذاب؟"^{٧٤١} وعندئذ يختلف عنه الشيخ يحيى - مع أنه كثيراً ما لا يظهر هذا بين الشيخين - ويزجره وهو يصرخ ويدعو

الله:

^{٧٣٥} بقاء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ٦٠.

^{٧٣٦} المصدر نفسه. ص. ١٦٥.

^{٧٣٧} المصدر نفسه. ص. ١٦٥.

^{٧٣٨} المصدر نفسه. ص. ١٧١.

^{٧٣٩} المصدر نفسه. ص. ١٦٥.

^{٧٤٠} المصدر نفسه. ص. ٦٠.

^{٧٤١} المصدر نفسه. ص. ٦١.

أن تسبق رحمة ربنا غضبه علينا، وأن يرحمنا قبل كل شيء من نعيق الغربان. وبصعوبة
أرد نفسي عن أن أسأله أتلك هي كل المعاصي يا شيخ؟ أليس تمنى الخراب هو أيضاً
معصية من المعاصي؟ وأنت، ألا يملكك الكبر وتسكن نفسك الكراهية؟ تكرهنا
معشرة الغربيين وتخفي وراء نبوءاتك المزعومة كأنك تتمنى لو تنزل مصائبها بنا نحن
اليوم قبل الغد. ولماذا يا شيخ صابر تُخفي ما بنفسك ولا تبديه؟^{٧٤٢}

وأما في الجانب الثاني لبروز كراهية المختلف في الرواية السادسة فقد لاحظ الباحث أن الظروف الحياتية الاجتماعية
قسّمت الشعب إلى عشيرة الشرقيين والغربيين، وأن هاتين العشيرتين كانتا في خصام واختلاف ومواجهة مستمرة؛ لا
يتفقان في أية مسألة.^{٧٤٣} وربما لسبب ذلك كثر في الواحة الحروب الأهلية. وتمثل تلك الاختلافات والمواجهات في
اجتماعاتهم التي يرأسها الشيخ صابر ربما بوصفه إحدى أشيخ شيوخهم. ومن تلك المسائل التي تُظهر اختلافاتهم مسألة
تسديد الضرائب وإعطاء الجزية التي تطالبهم بها النظارة من مصر. فكّر الشيخ صابر لمدة طويلة في كيف تحل وقية
شاملة بين الغربيين والمصريين دون أن يكون للشرقيين دخل. ولذا كان يشجّع أفراد عشيرته على التسديد،^{٧٤٤} ومن ثم
يكون الغربيون هم المحالفون لأمر النظارة، فيحدث عدم التسديد مشكلة وربما مهاجمة من النظارة من مصر.

ويؤكد هذا درجة اختلافه مع الغربيين ومدى كراهيته للمختلف. ويرجع سبب ذلك إلى مقتله ليوسف، إحدى عشيرة
الغربيين، الذي دبّر ونفذ مكيده ضد عشيرة الشرقيين. وبالتالي يريد الشيخ صابر أن يأخذ الثأر من الغربيين. حرّض
زجالة الشرقيين على إحراق خيمة واحد من الأجانب الذين يسرقون أرزاق الواحة، والذين تحميمهم مصر لكونهم
مستعمرين. أبلغه يوسف بما يريد الشرقيين به وعرض له أنه يستضيفه وبالتالي ينقذ حياته. والمفهوم من الحادثة أنهم
أرادوا قتله لكنهم ما وجدوه، فاكتفوا بإحراق خيمته. وسبب هذا معاينة يوسف العمدة للواحة فيما بعد، مكافأة
لحمايته الأجنبي. وشنّ المصريون حرباً ضد الشرقيين كان سبب بلوة الشيخ صابر.^{٧٤٥}

^{٧٤٢} بماء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ٦١.

^{٧٤٣} المصدر نفسه. ص. ١٢.

^{٧٤٤} المصدر نفسه. ص. ١٥٣ و ١٦٥.

^{٧٤٥} المصدر نفسه. ص. ١٦٢.

ومن بين تلك المسائل التي اختلف أفراد عشيرة الشرقيين مع الغربيين: مسألة اختيار زوج لمليكة الذي كان شيخاً من شيوخ الشرقيين، يصلح أن يكون جداً لها، وخروجها من بيت زوجها بعد الزواج بمدة قصيرة،^{٧٤٦} وخروجها وهي غولة (المرأة المتزوجة التي مات زوجها) قبل انتهاء مدة الحداد وما نتج عن ذلك من مصائب في الواحة.^{٧٤٧} ويلاحظ هنا أنّ الشيخ يجي حاول أقصى ما في جهده أن يوقف الجنون والحروب الأهلية بين العشيرتين، إلا إنّ محاولته باءت بالفشل. الأمر الذي أبرز بطولته ونبالته وصوّر جنونه، كما مثل مدى حبه للسلام والتوازن لأُمَّته في الوقت نفسه.^{٧٤٨} كما يلاحظ وصف خصومه الشيخ صابر هذه الصفات بأنها زائفة. ربما يكون مردّ ذلك خوفاً في احتمال أن تتفوق منزلة خصومه على منزلته في الواحة.

المطلب الثالث: الاختلاف الأسري

يتجسّد العنصر الثالث لعدم قبول الاختلاف في الاختلاف الأسري. ويقتصر بروزه في ثلاث روايات فقط: الرواية الأولى، والثانية والثالثة. ويتمثّل في الرواية الأولى في جانبين. الجانب الأول في اختلاف الشقيقين، والد الراوي وعمه. والجانب الثاني في اختلاف الأخوين: الراوي وابن عمه حسين، وفريدة وأُسرة الراوي. ويتجلى هذا العنصر في الرواية الثانية بين الراوي المشارك وزوج شقيقته، سميرة، والذي يُدعى: عبد المجيد. أمّا في الرواية الثالثة فيتّضح هذا العنصر في اختلاف صفة مع والد الراوي. وفي اختلاف الشقيقين المشار إليه آنفاً لاحظ الباحث أنّ اختلافاً نشب بين شقيق وشقيقه. وكان مصدر هذا الاختلاف يتمثل في أولاد الحاج صادق. وقد لوحظ سابقاً كيف سببت مسألة الأرض وملكيّتها شجاراً بين أسرة الراوي وأُسرة أولاد الحاج صادق.

إنّ البذرة التي أنبتت هذا الشجار والاختلاف بين الأسرتين هي أنّ أولاد الحاج صادق يعتبرون من زمن بعيد أسياد البلد

^{٧٤٦} بهاء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ٧٠-٧١.

^{٧٤٧} المصدر نفسه. ص. ١٦٦-١٦٧.

^{٧٤٨} المصدر نفسه. ص. ١٨٢.

الذي تسكن فيه الأستراتان. أما جدُّ الراوي فهو قد صنع نفسه من جهده الكبير. وفرض أب الراوي وعمه نفسيهما كل على طريقته. إلا أنّ أولاد الحاج صادق كانوا يرفضون ذلك بشدة في أعماق أنفسهم.^{٧٤٩} لذا يلاحظ أنهم يعاملون أسرة الراوي بتحفظ شديد لاسيما عم الراوي. وهم مستعدون في أيّ وقت لاستغلال فرصة إلقاء ضربة قاضية عليه (عم الراوي) وعليهم (أفراد أسرة الراوي). وأخيراً كان طبيعياً أن يرى واحداً منهم، العوضى، قتل عم الراوي وحسين معا يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة مباشرة، كما أشير من قبل.^{٧٥٠}

ينشب الاختلاف بين الشقيقين عندما بدأ أصحاب والد الراوي، أولاد الحاج صادق، يطمعون في أرض عم الراوي. يريدون أن يأخذوا الأرض وأب الراوي لا يفعل شيئاً، لا يحاول أن يدافع عن حق أخيه. فما يفعله مؤثر إلى أنه يقف في صفهم، مع أنه يعرف في أعماق نفسه أنّ الأرض لشقيقه. لذا اختلف الشقيقان. وبيّن في تصرفات عم الراوي أنه لا يقبل الاختلاف مع أخيه الأكبر. وقد ذكّر الأخ الأصغر أخاه الأكبر أنه أخيه وأنّ هؤلاء أصحابه. وأنه ينتظر أن ينصره إن احتاج إلى نجاته.^{٧٥١} إلا أنه من الأسف الشديد يبدو أنّ أصحابه أغلى من أخيه، ذلك ربما لأنه يجري وراء مصلحته الشخصية. وأشار الأب إلى أنه لا يريد أن يلقي بيديه إلى التهلكة. واقتبس في ذلك آية قرآنية لتأكيد قوّة ما يذهب إليه. حيث قال: "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة".^{٧٥٢} إذ إنّ الشجار مع أولاد الحاج صادق يعتبر إلقاء النفس إلى الهلاك. وكذلك لا يريد أن يحمل بندقيته ويجري في البلد كالمجرم.^{٧٥٣} فردّ شقيقه مقتبساً هو الآخر آية قرآنية أخرى ليوضّح قوّة مذهبه: "ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه...".^{٧٥٤}

ويتّضح من المأساة التي حلّت بأسرة الراوي أنّ تأثيرها انتشر في أفراد الأسرة. ذلك أنّ منيرة تعتقد أنّ لوالد الراوي

^{٧٤٩} بماء طاهر. ١٩٨٥م. شرق النخيل. ص. ٥٠.

^{٧٥٠} المصدر نفسه. ص. ٦٨.

^{٧٥١} المصدر نفسه. ص. ٣١.

^{٧٥٢} المصدر نفسه. ص. ٣٠.

^{٧٥٣} المصدر نفسه. ص. ٣٢.

^{٧٥٤} المصدر نفسه. ص. ٣٠.

نصيب وافر في مقتل والدها، وعليها بالتالي أن تأخذ بالثأر. تحاكي والدها الراوي ما حدث بين منيرة ووالد الراوي: عندما ذهب إلى بيت منيرة لم تدخله بيتهما. خرجت مكشوفة الوجه محلولة الشعر وصفت التراب في وجه أبيك وبصقت عليه. هذا ما كان وهذا ما سمعت. أما أنا لم أرها. لا تريد أن تراني. تقول إنها تربي ولدها ليأخذ بثأر أبيها وأخيها.^{٧٥٥} وقبل وقوع المأساة كان الراوي يشكو لحسين لماذا لا يفعل الأعمام والأحوال شيئا عن مسألة ملكية الأرض التي كانت سبب كل المشكلات؟ أما اللذان يتحتم عليهما أن يوقفوا هذه المشكلة وحدهما. يقول الراوي في هذا الصدد: "لماذا لا يفعل الكبار شيئا؟ أحوالك مثلا أو أهل أبي وأبيك؟ لم يتركوا هذه النار تشتعل ولا نسمع منهم شيئا سوى الكلام؟ لماذا وهم يعرفون أن الحق معنا لا يذهبون إلى أولاد الحاج صادق ويقولون إنهم يعرفون لمن الأرض وإنهم لن يسكتوا إن حاول أحد أن يعتدى على حق أبيك؟"^{٧٥٦}

واكتشف الباحث في الجانب الثاني للاختلاف الأسري في هذه الرواية المتمثل في اختلاف الأخوين: الراوية وحسين، أنهما اختلفا بسبب اختلاف والديهما. كانا في بداية الأمر أخوين وصديقين. وكانا يجبان بعضهما الآخر منذ الصغر؛ لأنهما تربيا معا. فكانت العلاقة بينهما وطيدة. على أنه قد تم الاتفاق على أن تكون منيرة زوجة للراوي إن كبرا. إلا أنّ هذا لم يحدث؛ لأنّ أب الراوي أراد أن يستمر الراوي بدراسة حتى الجامعة، ولا تستطيع منيرة أن تنتظر فتزوجت من غيره. ولما حدث ذلك فر الراوي إلى حديقة كانا — هو وحسين — يذهبان إليها. وعندما بحثوا عنه في الفرح ولم يجده جري حسين في عتمة الليل وطرده الكلاب ونهشت رحله^{٧٥٧} كل ذلك لأنه حزين لحزن أخيه.

ويتضح مما سبق مدى قوة العلاقة بين الراوي وحسين. ولما حدث الخلاف بين أب الراوي وعمه، كان العم قد غفر له لكونه صغيرا. لكن حسين لم يغفر له^{٧٥٨} إلا بعد مدة من الزمن لما اصططبه إلى محطة القطار للسفر إلى مصر

^{٧٥٥} بماء طاهر. ١٩٨٥ م. شرق النخيل. ص. ٧١.

^{٧٥٦} المصدر نفسه. ص. ٥٤.

^{٧٥٧} المصدر نفسه. ص. ٤٦.

^{٧٥٨} المصدر نفسه. ص. ٣٧.

لاستئناف دراسته بعد انتهاء إجازة الصيف.^{٧٥٩} كما أنّ تصرفات حسين تجاه الراوي بعد خلاف الشقيقتين تؤكد أنّ حسين شخصية لا تقبل الاختلاف مع شخصية أخرى. إلا إنها شخصية سمحة. ويثبت ذلك عفو لولد عمّه فيما بعد.

ويتجلى الاختلاف الأسري في الرواية الثانية بين الراوي المشارك وزوج شقيقته سميرة أولاً ثم معها ثانياً. وقد أشار الباحث إلى شيء من هذا الاختلاف بين تلك الشخصيات الثلاثة في مناقشة تدهور العلاقات الأسرية. إلا أنّ الفرق بين هذا المطلب وذاك هو أنّ هذا المطلب يبرز مدى عدم قبول الراوي الاختلاف مع أي شخصية أخرى، ولو كانت شقيقته. ولذا لم يهتم كثيراً عندما طرد زوج شقيقته سميرة وتركت بيت أبيها وتبع زوجها عبد المجيد.^{٧٦٠}

أمّا في الرواية الثالثة فقد أُشير إلى أنّ الاختلاف الأسري يتجلى في اختلاف صفة مع والد الراوي. ويتمثل مصدر اختلافهما عندما سمّت صفة حماراً في بيتها "حري". غضب والد الراوي الطفل عندما سمع ذلك. إذ إن فعلها يناهز التربية الإسلامية الصحيحة. فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...﴾^{٧٦١} وإذا كان الله قد كرم بني آدم، فكيف لا يكرم الإنسان أخاه الإنسان؟ فكيف يحطّ إنسان قيمة إنسانٍ آخر بدرجة أن يسمي حماراً باسمه؟ فهذه عادة أو تصرف مرفوض لا يليق بمسلمٍ جيّد كما يرى ذلك الوالد.

ومن هنا عبّر والد الراوي الطفل عن رأيه تجاه تصرف صفة، كما عبّر عن موقف الإسلام تجاه المسألة عندما زارها في بيتها. حاولت أن تقبل يده كما اعتادت أن تفعل فسحب يده مسرعاً ليعبّر عن مدى غضبه عليها نتيجة ما فعلت. صرّحت له بدورها أن ما فعلته هو طريقته لإطفاء نار غضبها وأخذ ثأرها. إلا إنه لم يرض بذلك. وقال لها إن لم تراجع على ما فعلت فلن تراه في بيتها مرة أخرى. ثم تصالحا بعد وفاة حري بقليل وكادت هي الأخرى أن تنتقل إلى جوار ربها. وتقول في هذا الصدد: "نعم يا والدي. اعذريني. لا أستطيع أن أقوم.. ولكن إن كان حري يطلب يدي فقل

^{٧٥٩} بماء طاهر. ١٩٨٥م. شرق النخيل. ص. ٥٤.

^{٧٦٠} بماء طاهر. ١٩٨٥م. قالت ضحى. ص. ١٢٣.

^{٧٦١} القرآن. سورة الإسراء: الآية: ٧٠.

للبك إني موافقة.. أنت وكيللي يا ولدي.. وأنا موافقة على أي مهر يدفعه حربي.. لا تشغل بالك بالمهر..^{٧٦٢}

تبقى الآن الإشارة إلى التشابه والاختلاف بين الروايات في تناول عنصر عدم قبول الاختلاف بوصفه مظهراً من المظاهر التي يبرز من خلالها البعد النفسي والتفكيري لشخصيات الروايات. وذلك كما يقتضيه المنهج الوصفي التحليلي. يلاحظ أنه لا يوجد في الرواية الخامسة عنصر من هذه العناصر الثلاثة الذي تمثله الروايات كلها. وبالتالي تتفق روايتان: الرواية الثانية والرابعة في عرض اختلاف الشخصيات بينها وعدم تحمّل ذلك الاختلاف من شخصية ذات نفوذ. وتشابه الروايتان في أنّ مجال إبراز نفوذ الشخصية القوية هو التهديد بالفصل عن الوظيفة في الرواية الثانية،^{٧٦٣} وتنفيذ خطة الفصل عن الوظيفة بالفعل: الضربة القاضية التي تتلقاها شخصيتي الراوي الصحفي وبريجيت في الرواية الرابعة من الفاعل: الأمير التقدمي الذي يبدو من عمله هذا أنّ نفسية شخصيته لا تتحمل الاختلاف مع شخصية أخرى أيّاً كانت!^{٧٦٤}

والملاحظ عن عنصر كراهية المختلف أنه يجسّد أقصى درجة للصراع الدرامي بين الشخصيات. حيث يصل الأمر إما إلى حد التميّن بالتلاشي والفناء للشخصية الأخرى، كما يبرز هذا في الرواية السادسة عندما يتمنى الشيخ صابر للشيخ يحيى الموت،^{٧٦٥} أو تصل الكراهية إلى حد ممارسة العدوان^{٧٦٦} وربما تنتهي بمأساة الموت،^{٧٦٧} كما يحدث ذلك في الرواية الثالثة والأولى. وفي ضوء ما سبق، يبدو أنّ الروايتين تتفقان في تشخيص الموت بوصفه نهاية مأساوية نتيجة كراهية المختلف. فقتل أولاد الحاج صادق عم الراوي وابن عمه. ومات البك نتيجة إطلاق حربي رصاصه عليه في محاولة الدفاع عن نفسه أثناء ممارسة البك ورجاله العدوان عليه. كما تمثل الرواية السادسة تميّن النهاية، من شخصية الشيخ صابر، للشخصية

^{٧٦٢} بماء طاهر. ١٩٩١م. خالتي صفية والدير. ص. ١٣٦.

^{٧٦٣} بماء طاهر. ١٩٨٥م. قالت ضحى. ص. ١١٧-١١٨.

^{٧٦٤} بماء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ٢٤٢-٢٤٣.

^{٧٦٥} بماء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ١٦٥.

^{٧٦٦} بماء طاهر. ١٩٩١م. خالتي صفية والدير. ص. ٧١.

^{٧٦٧} بماء طاهر. ١٩٨٥م. شرق النخيل. ص. ٦٨.

الأخرى: الشخ يحى. ثم إنَّ تصويرَ النهايةِ المأساويةِ سمة من سمات الواقعية النقدية كما يؤكِّد ذلك بيتروف.^{٧٦٨}

تتفق ثلاث روايات الأولى في تمثّل الاختلاف الأسري، وهي الرواية الأولى والثانية والثالثة على التوالي. وتنفرد روايتان: الثانية والرابعة، في عرض اختلاف الشخصيات الذي يمسح الصراع الخفي بين الشخصيات التي تربطها العلاقة الأسرية من نوع ما. ثم تنفرد الرواية الأولى في تجسيد اختلاف الشقيقتين في جانب،^{٧٦٩} وبين الراوي وابن عمه في جانب ثان.^{٧٧٠} وهو اختلاف يتولّد من الاختلاف الأول. وتخصّص الرواية الثانية بتشخيص اختلاف بين الشقيق وشقيقته من جانب،^{٧٧١} وبين الشقيق وزوج الشقيقة من جانب آخر.^{٧٧٢} أمّا الرواية الثالثة فهي الأخرى تنفرد في إبراز الاختلاف الأسري بين ربّ أسرة وشخصية تعتبر بمنزلة الابنة في الأسرة.^{٧٧٣}

وفي نهاية الفصل ينبغي الإشارة إلى أنّ مما يلفت النظر في مسألة التشخيص الروائي في الروايات المدروسة هو أنّ شخصيات بقاء تنفق في زاوية بُعدها الداخلي. وذلك في كونها مغتربة إمّا في مجتمعها وبين أهلها، أو في خارج وطنها بعيداً عن أهلها ومسقط رأسها. وقد وظّف الكاتب ظاهرة الغربة أو الاغتراب بنوعيه في تصوير الشخصيات التي حاول الباحث استظهارها ومناقشتها فيما سبق. ومن هنا يلاحظ أنّ اغتراب الشخصيات نتيجة حتمية للظروف الاجتماعية والسياسية القاسية التي تعيشها تلك الشخصيات التي تعاني من الغربة. وبجانب الاغتراب، تتفق كثير من الشخصيات في زاوية اضطراب علاقاتها الإنسانية المختلفة. ولا يوجد استثناء بين الروايات التي تصور هذا البعد النفسي للشخصيات. فكل رواية لا تخلو من نوع من الفشل في تشييد علاقة من العلاقات الإنسانية. ويدخل تحت هذا: العلاقات الأسرية والزوجية، والعلاقة بين الحبيين. وهناك ما يسترعي الانتباه

^{٧٦٨} س. بيتروف. ٢٠١٢م. الواقعية النقدية في الأدب. ص. ١٤٠.

^{٧٦٩} بقاء طاهر. ١٩٨٥م. شرق النخيل. ص. ٣٠-٣١.

^{٧٧٠} المصدر نفسه. ص. ٣٧.

^{٧٧١} بقاء طاهر. ١٩٨٥م. قالت ضحى. ص. ١١٥.

^{٧٧٢} المصدر نفسه. ص. ١٢٢-١٢٣.

^{٧٧٣} بقاء طاهر. ١٩٩١م. خالتي صغية والدير. ص. ٨٥.

بالنسبة لهذه العلاقة الأخيرة، فهي علاقة تفشل دائماً. وإن بدت الشخصيات في أول الأمر سعيدة بتشديد علاقة عاطفية، فتلك العلاقة مؤقتة؛ إذ سرعان ما تتلاشى وينقض على عنقها الفشل، فتفترق الأحبة نتيجة الظروف الاجتماعية والسياسية، وتنكسر أحلامها ثم تحبط آمالها.^{٧٧٤}

وإلى جانب الاغتراب واضطراب العلاقات الإنسانية، تكاد تتفق بعض الشخصيات في ميزة نفسية أو في إبراز المؤلف لبعدها النفسي. وهذه الميزة هي عدم قبول الاختلاف. إنَّ هناك عدداً من الشخصيات لا ترضى باختلاف مع أي شخصية أخرى. ولا تقبل الاستغلال والظلم والقهر؛ لذا تختلف تلك الشخصيات دائماً فيما بينها. ويظهر هذا البعد النفسي في ثلاثة أشكال: اختلاف الشخصيات التي لا تربط بينها علاقة قرابة أولاً،^{٧٧٥} وثانياً كراهية المختلف إلى حد تمني التلاشي والموت،^{٧٧٦} وثالثاً اختلاف شخصيات بينها علاقة قرابة أو علاقة أسرية.^{٧٧٧} وقد اعتنى بهاء طاهر بتصوير هذا البعد الداخلي النفسي بمهارة فنيّة في مشاهد درامية، كما سبقت مناقشة ذلك.

ويستخلص من المناقشة السابقة في هذا الفصل أنّ تصوير الشخصيات يُبرز حقائق داخلية نفسية عن الشخصيات. وإنَّ الروايات رسمت شخصيات عاشت ممزقة تحب وطأة الاغتراب. فقد أصبحت تعاني من الاغتراب في وطنها وبين أهلها تارة، وتعاني من الاغتراب خارج وطنها وبعيداً عن مسقط رأسها تارة أخرى. كما أنّ العلاقات الإنسانية المختلفة قد انشرفت وأصبحت بالتدهور ثمّ الفشل. ثمّ إنّ الشخصيات لا تقبل الاختلاف أبداً؛ تكرهه إلى حد أنّ بعضها تخاصم وتمارس العدوان وتحارب وتقاتل. وبالتالي عاش بعض الشخصيات للألم؛ وعاش معظمها يعاني من إحباطات الآمال، وتحطّم الأحلام والهزيمة الداخلية. ومن هنا يبدو أنّ الروايات ترصد حقيقة الإنسان الحديث حسب رؤية

^{٧٧٤} بهاء طاهر. ١٩٨٥م. شرق النخيل. ص. ٦ و ١٠٦. و: بهاء طاهر. ١٩٨٥م. قالت ضحى. ص. ٧٥ و ٣٩ و ١١٥. و: بهاء طاهر. ١٩٩١م. خالتي صافية والدير. ص. ٤٧، ٧٥، ٨٥، ٨٧. و: بهاء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ١٨٧، ١٩١، ٢٠٤. و: بهاء طاهر. ٢٠٠١م. نقطة النور. ص. ٣٢-٣٣، ٣٦، ٤٣. و: بهاء طاهر. ٢٠٠٦م. واحة الغروب. ص. ٢٧، ٨٥، ٢٠٣، ٢٤٧.

^{٧٧٥} قد حدث ذلك بين الراوي والأمير حامد وبريجيت في الرواية الرابعة. ينظر: بهاء طاهر. ٢٠٠١م. الحب في المنفى. ص. ٢٤٣.

^{٧٧٦} يتجلّ هذا البعد الداخلي النفسي الشيخ صابر والشيخ يحيى حيث إنهما "أثنان من زعماء الواحة على طرفي النقيض من كل شيء تقريباً." ينظر: محمود عبد الشكور. ٢٠١٥م. أفتحة السرد (مقالات عن روايات مصرية وعربية علمية). القاهرة: الدار اللبنانية. ص. ١١.

^{٧٧٧} يجسّد هذا النوع من الاختلاف والد الراوي وعمه في الرواية الأولى. ينظر: بهاء طاهر. ١٩٨٥م. شرق النخيل. ص. ٣٠.

الكاتب لها. كما أنّ ذلك إشارة واضحة إلى أنّ تصوير الشخصيات في روايات بهاء طاهر يدل على انتمائه إلى الواقعية

النقدية.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA